الفصل الأول

شبكات السياسة الخارجية النخبوية

الإسلاموفوبيا ليست مجرد تحيزات

في عام ١٨٦٧، حذّر بطرس البستاني، وكان مَوْسوعياً بارزاً تحوّل إلي البروتستانتية، حذّر إخوانه العرب من أن عليهم الدفاع عن أنفسهم في مواجهة هجمة «جحافل» العادات الأوروبية علي العادات العربية والتي تُشنّ بعزم وإصرار. ظل العرب دائما منذ القرن التاسع عشر علي دراية بتعديات الغرب الثقافية، وياتهاماته الأخلاقية لهم، وأرائه المُستخفة بهم. وفيما أوضحت الدراسات أن العرب كانوا قد أظهروا مشاعر تنم عن الثقة وروابط القربي تجاه الولايات المتحدة قبل الحرب العالمية الثانية، إلا أنهم ألفوا تدريجيا حنث الولايات المتحدة لوعودها لهم وفقدانها لمصداقيتها علي مدي الأعوام المائة وخمسين الأخيرة. لم تأت أحداث ١١ سبتمبر بأي جديد.

obeikandl.com

لم تستحدث الإسلاموفوبيا أو تضاعف مُخططات الولايات المتحدة للشرق الأوسط. لكنها حرّرت أسْر خطاب الكراهية، وأفعال الكراهية، والمخططات السياسية والسياسات التى كانت تكبحها من قبل المحاذير السياسية والفلاتر الأخلاقية. منحت هجمات سبتمبر ٢٠٠١ التراخيص للأمريكيين من مُعلقين وصحفيين وسياسيين ومنظّرين لتبنى خطابات الإسلاموفوبيا التى كان قد أعيد تشكيلها أثناء التسعينيات. فى تلك الأثناء انضم المأجورون السياسيون إلى الأكاديميين والمنظرين الأوغاد من أجل إحياء التنميطات الشائعة بالغة البشاعة المعادية للإسلام والعرب وإعادة تشكيلها واستثمارها بذريعة «فهم» العقل العربى واكتشاف «لماذا يكرهوننا».

لفتت الشيطنة الكوكبية للمسلمين انتباه وسائط الإعلام العربية منذ بداية التسعينيات وقبل صعود جورج دبليو. بوش بوقت طويل. تصادف أن واكب ظهور القنوات التليفزيونية الفضائية فى العالم العربى مَقدِم العالم أحادى القطب، حيث

تناولت البرامج الجديدة والبرامج الحوارية النصوص والنظريات التى كان لها أن تُشكل الأساس الأيديولوجى لسياسة الولايات المتحدة بمجرد نشرها، وبخاصة تلك الإصدارات من أمثال «أصول غضب المسلمين وحنقهم» لبرنارد لويس، و«صدام الحضارات» لصمويل هنتنجتون و«نهاية التاريخ» لفرانسيس فوكوياما. كانت تلك النصوص بمثابة مؤشر أن ثمة نقلة فى اللغة السياسية لحكومة الولايات المتحدة تجاه الشرق الأوسط والعالم الإسلامي، نقلة استشفتها الوسائط الإعلامية العربية الجديدة المعولمة.

كانت محطة «راديو وتليفزيون العرب ART» هى أول قناة فضائية عربية انطلقت عام ١٩٩٣، فيما بدأت كل من الجزيرة وقناة ال بى سى اللبنانية بثهما عن طريق الأقمار الاصطناعية عام ١٩٩٦. كان لهذه القنوات أن تُعرّف جماهير المشاهدين العرب بلغة العصر أحادى القطب الجديد وبخطابه السياسي، وأيضا أن تعيد صياغة

obeikandl.com

الخطاب المدنى والسياسى فى العالم العربي. أصبح تعبير «صدام الحضارات» عبارة تتداولها الشفاة فى جميع البرامج الإخبارية العربية وتستدعى النماذج المعيارية المألوفة التى تقابل بين الثقافات الغربية ونظيراتها العربية/ الإسلامية بصفتها فى حالة حتمية دائمة من الخصام والتناحر. فى التسعينيات، أصبح المشاهدون العرب، من خلال إعلام القنوات الفضائية، ثم الإنترنت فيما بعد، على إلمام تام بسجل الإسلاموفوبيا وشفراتها ولغتها والتى على أساسها تشكلت بنية السياسية الخارجية الأمريكية التى بلغت ذروتها فى «أجندة الحرية» لجورج دبليو. بوش ثم أضفت عليها رئاسة باراك أوباما الصبغة المؤسسية.

يتتبع هذا الفصل الخطوط السطحية فقط للعلاقات السياسية والشخصية العميقة بين مهندسى الإسلاموفوبيا الأيديولوچيين، ومروجيها، والانتهازيين وغيرهم ممن ساهموا فى إعادة صياغتها منذ التسعينيات. تفجر التواطؤ بين الدولة، ومراكز الأبحاث، واللوبيهات، ومجموعات المصالح الخاصة من جهة، وبين الأكاديميين، والناشطين، والصحفيين من جهة أخرى مع تفكك الاتحاد السوفييتى و«نجاح» عملية عاصفة الصحراء. دعمت شبكة العلاقات تلك «الحرب على الإرهاب» التى شنها بوش، لكنها أيضا تغلغلت فى أعماق إدارة كلينتون. وعلى الرغم من عدم تواجد مختلف أعضاء هذه الشبكة بكثرة فى إدارة أوباما، إلا أن النماذج المعيارية والسياسية التى روجتها الشبكة وعملت على تطبيعها يجرى الآن إضفاء الصبغة المؤسسية والقانونية عليها بواسطة الإدارة الحالية. بتعبير آخر، يرسم هذا الفصل كفاف الكيفية التى تداخلت فيها النماذج المعيادية للإسلاموفوبيا فى عصر العولمة والإمبراطورية الأمريكية فى نسيج صنع السياسة والإعلام بالولايات المتحدة ونظرة التيار الأمريكى السائد على العالم بغض النظر عن الإدارات الحاكمة.

ليست الأيديولوچيا مؤامرة أو برنامجا حزبيا:

على مدى العقدين الأخيرين، نجحت شبكات المشتغلين بالسياسة والخبراء الاقتصاديين والمعلقين والأكاديميين، تلك الشبكات التى تمضى تتوسع دوما، نجحت فى جعل كثير من نماذج الإسلاموفوبيا المعيارية تهيمن على التيار السائد فى المجتمع

المدنى الأمريكى وتشكل مدركاته. أثناء سنوات إدارة أوباما، وصل حديث الكراهية الموجّه للمسلمين والتحيزات ضدهم إلى مستويات غير مسبوقة. أوضحت استطلاعات الرأى أن آراء ٤٩٪ من الأمريكيين عن الإسلام «سلبية» وأن ثلثهم يعتقدون أنه دين «يشجع» العنف. من المعروف أنه ثلث أعضاء الحزب الجمهورى يعتقدون أن أوباما يعتنق الإسلام سرا، كما أنه من المعروف أيضا أن معاطلة أوباما بشأن حق المسلمين لبناء مسجد بمنهاتان لا تُعزى إلى الجبن السياسي. فاعتقاد الجمهوريين ذلك ومعاطلة أوباما هما تعبيران عن الإسلاموفوبيا الراسخة والتى لا تمثل أمرا شاذا عرضيا. لا تنجم الإسلاموفوبيا عن «صدام للحضارات» متأصل بين الشرق والغرب، أو عن سوء ظن تاريخى ومشاعر فظة يكنها المسيحيون لنظرائهم المسلمين. لكن الإسلاموفوبيا هى نتاج سهل لتاريخ أمريكا البيضاء العنصري، وعدم ارتياحها إزاء ذوى البشرة غير البيضاء، وبخاصة حينما يؤكد هؤلاء وجودهم ويثبتون أنفسهم. لكن العنصرية ليست وراثية، بل هى ظاهرة اقتصادية وسياسية تتواجد دائما فى سياقات تاريخية. فى حالة الإسلاموفوبيا، تنجم المشاعر الفظة تجاه الإسلام والمسلمين عن دور أمريكا السياسى كقائد كوكبى للعالم أحادى القطب، قائد يمارس كثيرا من سطوته وقوته فى الشرق الأوسط بخاصة. من ثم، لم يكن لخطابات التيار السائد عن الإسلام والمسلمين أن تكون متاحة كى تنشرها قطاعات جمهور التيار السائد إن لم يكن قد ظلت تُبث بكفاءة وفاعلية، وتستخدم كمبررات سياسية وتفسيرات ثقافية بواسطة شبكة الصحفيين والمنظّرين والمعلقين و«المخبرين المحليين» والأكاديميين طوال العقدين الأخيرين. بتعبير آخر، فإن التفاعل الذى نرسم ملامحه فى هذا الفصل بين كبار «المثقفين» الأوغاد وبخاصة برنارد لويس وفؤاد عجمى وفريد زكريا، وبين اللاعبين السياسيين الرئيسيين، ومراكز الأبحاث و«اللجان» هو الوسيلة التى بواسطتها يتم إدخال الإسلاموفوبيا إلى أعماق المجموعات الليبرالية والمحافظة معاً متخفية فى هيئة تحليلات سياسية وتفسيرات ثقافية قائمة على أساس من المعرفة والاطلاع. علاوة على ذلك، فإن الشبكات التى نتقصاها فى هذا الفصل هى فقط واحدة من سلسلة

من الأساليب التى بواسطتها يستمر سياسيو الولايات المتحدة، ومجموعات المصالح الخاصة، والمنظرون وصناع السياسة فى صياغة التحليلات المعادية للعرب والمسلمين ونشرها واستخدامها من أجل تبرير الإجراءات الاقتصادية والعسكرية والسياسية فى الداخل والخارج.

مهّد وابل الكتابات الزائفة التى نشرها المؤدلجون، والصحفيون المأجورون والمعلقون السياسيون الطريق لبيئة لحصار العالم العربى تعمقت وتفاقمت بعد ٩/١١. نحن وقد قلنا هذا علينا أن نوضح أن هذا الفصل يرفض فكرة وجود علاقة تآمرية صريحة تجمع هؤلاء الأكاديميين والمنظرين الناقدين، والصحفيين، وقادة الحكومة وصناع السياسة والسياسيين ورجال الأعمال والصناعة ومراكز الأبحاث ولجان العمل السياسى ومجالس الإدارات والنوادى الخاصة واللجان والمجالس والمجموعات.

يؤكد هذا الكتاب على المكوّن الأيديولوچى للإسلاموفوبيا، وكيف أنها تكوين يخترق الخطوط الحزبية والارتباطات السياسية والقطاعات السياسية كى يدعم الضرورات المزعومة لوجود أمريكا كقوة عظمى وتبريرات ذلك. ومن أجل كشف هذا، يُلقى هذا الفصل الضوء على الطبيعة السياسية والأيديولوجية لتلك العلاقات بين مختلف الأطراف، ويبين أنها متوطنة فى النظام السياسى للولايات المتحدة النزّاع إلى القوة والسطوة.

وفى واقع الأمر لا تبرهن فاعلية التحالف بين المحافظين الجدد وصقور الديموقراطيين والمسيحيين الإنجيليين الصهاينة الأمريكيين المتعصبين و«مثقفيهم» المدّللين – على وجود مؤامرة بقدر ما تُثبت وجود بنية منهجية تعمل من خلالها جماعات المصالح السياسية والمنظرون السياسيون والمصالح الاقتصادية وصناع السياسة بتكافل على خدمة بعضهم.

وبالمثل، فإن هذا الفصل ليس شاملا فى تحديده للعلاقات المتداخلة بين الأكاديميين الزائفين والمعلقين السياسيين والصحفيين بالشبكة سالفة الذكر. كما أننا لا نزعم أن شبكة الأطراف الفاعلة السياسية والأكاديمية والإعلامية تشكل جماعة سرية تحيك

المؤامرات خلف الأبواب الموصدة من أجل اضطهاد المسلمين والقضاء على الإسلام. نقول بوضوح إن تلك الشبكة الهلامية ليست مؤامرة، بل الأحرى أنها طبقة أيديولوچية من الأطراف الناشطين الذين لا يتشاركون فى معتقدات عامة؛ بل يتشاركون فى مصالح وأهداف تسعى بشكل أساسى إلى إطالة عمر الرأسمالية الكوكبية وهيمنة الولايات المتحدة على العالم. بتعبير آخر، يمكن أن يحل مصطلح «النخب» محل الشبكة العالمية. وعلى الرغم من ذلك، فإننى أستخدم مصطلح «الشبكة» وذلك لأن الشخصيات الجديرة بالذكر فى هذا الفصل هم مجرد عينة عشوائية من طبقة أوسع من النخب القومية. بتعبير آخر، فإن «الشبكة» التى نورد تفاصيلها فى هذا الكتاب ما هى إلا عينة عشوائية من العلاقة المتداخلة بين أصوات مختلفة، ومساهمين، ومراهنين يعملون على تحديد الخطابات التى تمكّن سياسة الولايات المتحدة الخارجية وتدعمها. ولسوء الحظ، فإنهم مجرد قمة مُمثّلة لجبل جليدى من عداء أيديولوچى عميق الجذور تجاه المسلمين، بل ولشعوب الجنوب، فى الثقافة السياسية شمال الأمريكية.

منذ صعود چورچ دبليو بوش وسقوطه، قام الباحثون والصحفيون الناقدون بتحديد معالم الانقلاب الأيديولوچى الذى نفذه المحافظون الجدد فى انتخابات عام ٢٠٠٠. يوضح دايڤيد ألثيد، فى دراسة مُقنعة، كيف أن أصحاب «مشروع القرن الأمريكى الجديد، اشتركوا فى وضع «مؤامرة عامة» بداية من عام ١٩٩٢، وتبنوا الدعوة إلى تدخل عسكرى فى العراق وتغيير نظامه. غذّت هذه الحملة الدعائية الهائلة الوسائط الإعلامية المذعنة بمعلومات انتقائية لا سياق لها عملت على تشكيل أساسٍ لغزو العراق واحتلاله».

لا يمكن لهذا الفصل تقديم ما هو جديد حول الكيفية التى كانت تعمل بها عقول بوش وزمرته أو تفاصيل الألاعيب المعقدة التى تم بها تنفيذ هذا الانقلاب، بيد أن هذا الفصل يسعى لإيجاد الروابط بين النقلة الأيديولوچية الراديكالية التى تم التخطيط لها فى تسعينيات القرن العشرين وبين تنشيط الإسلاموفوبيا لتبرير الأجندة السياسية والاقتصادية التى واكبت عولمة هذه الفترة وتخطتها. يفسر هذا الترابط إحدى الوسائل

التى بها صيغت الإسلاموفوبيا وتم نشرها من أجل الدفع بالأجندات السياسية الأمريكية فى الشرق الأوسط من خلال غرس التنميطات والتحليلات العنصرية فى أذهان الجماهير الأمريكية بما يتوافق مع تكوينات لا وعيهم العنصري.

أحد المثقفين الإعلاميين وشبكته:

بعد هجمات ٩/١١ مباشرة، دعا دونالد رمسفلد، وريتشارد بيرل، وبول وولفويتز مجموعة «من الأكاديميين» وصناع السياسة و«الخبراء» إلى اجتماع سرى فى البيت الأبيض. يذكر بوب وودوارد أن وولفويتز أخبر رئيس أمريكان إنتربرايز إنستيوت (AEI) كريستوفر دموث أن «حكومة الولايات المتحدة، والبنتاجون بخاصة، لا تستطيع إنتاج نوع الأفكار والاستراتيجيات المطلوبة للتعاطى مع أزمة بحجم أحداث ٩/١١ وهولها».

وإلى جانب كبار العسكريين ومسئولى وزارة الخارجية ووزراء من إدارة بوش، كان للثقل الفكرى والثقافى لمجلس «الحرب على الإرهاب» هذا أن يرتكز على فريد زكريا وبرنارد لويس وفؤاد زكريا ومعهم منظّرون ونشطاء ظلوا طوال عمرهم معادين للعرب وموالين لإسرائيل.

كان زكريا النموذج المحبب إلى اليمين، حيث كان نجما صاعدا، وكان بالفعل أصغر مَنْ تولى رئاسة تحرير النيوزويك سنا. كان قد شبَّ ابنا لإحدى الأسر المعروفة فى الهند حيث كان والده مسئولا فى حزب المؤتمر، ثم أصبح شخصية لافتة فى التسعينيات بسبب مواقفه السياسية المحافظة. تخرج فى هارفارد وحصل منها على درجة الدكتوراة ونُظر إليه على أنه صنيعة صامويل هنتنجتون. ونظرا لأنه شخص وسيم طلق الحديث، أصبح متحدثا رئيسيا باسم اليمين الجديد. وفيما وصل إلى منصب رئيس التحرير الإدارى «لمجلة فورين بوليس»، ثم مجلة نيوزويك، طوّر روابط مع الحرس القديم فى الحزب الجمهوري، ومع صقور المحافظين الجدد. بيد أنه، وبالتقابل مع لويس، أعاد، بكياسة، تشكيل توجهاته ليصبح شخصية إعلامية وسطية يتحدث إلى جماهير أوسع بكثير من المحافظين الجدد الذين عفا عليهم الزمن.

أما برنارد لويس، الأستاذ الفخرى بجامعة برينستون، فقد تصرف كشخص مُسنّ مميز، «ضليع» فى دراسات الشرق الأوسط. فى عام ٢٠٠٨، كان زكريا ولويس ضمن قائمة مجلة فورين بوليس لأبرز مائة مفكر على مستوى العالم. وبالتقابل، فإن فؤاد عجمى أستاذ بجامعة جون هوپكينز ظل يحاول منذ ثمانينيات القرن العشرين كسب ثقة اليمين. وفى واقع الأمر، فقد ظل لويس وعجمى متواطئيْن منذ عقود مع مجموعة المحافظين الجدد، أى أنهما كانا ضمن مجموعة أكاديميين مارقين انضوت أبحاثهم وأعمالهم الأكاديمية على أجندات سياسية مصغرة أحيانا، ويمكن استشفافها أحيانا أخري، أدرك كلاهما بوضوح حاد الأهمية السياسية لتحلل الاتحاد السوڤييتى وعلاقة هذا بالسياسة الخارجية الأمريكية فى الشرق الأوسط. أثناء عملية عاصفة الصحراء، غدا لويس وعجمى من «المثقفين العامين» المتحمسين وسرعان ما تبنتهما مختلفة الأجنحة الحزبية داخل دوائر المحافظين الجدد.

كانت الاجتماعات التى عقدها وولفويتز. وپيرل ورمسفلد معالم على الطريق، عملوا خلالها على إضفاء صبغة قانونية على بيان سياسى حدَّد غزو العراق والإطاحة بصدام حسين بين أولى أوليات السياسة الخارجية للولايات المتحدة فى الحرب الجديدة على الإرهاب. يزعم زكريا أن معلوماته عن تلك الاجتماعات المغلقة أنها لم تكن أكثر من جلسات لتوليد أفكار عاصفة تهدف للإعداد للتوجهات الجديدة. بيد أننا نعلم أنه شارك فى تلك الاجتماعات فى وقت كان فيه من بين أكثر الدعاة المفوّهين المرئيين المؤثرين لتغيير النظام فى العراق. فى غضون أسبوع واحد فقط من أحداث ٩/١١، كان زكريا ولويس وعجمى يعتبرون الهيئة الاستشارية لورقة «مثلث الإرهاب» التى كتبها وولفويتز، ولسياساته التى كانت قد أصبحت بحلول نوفمبر ٢٠٠١ أمرا شبه منجز.

معقدة هى العلاقات بين البيت الأبيض وبين زكريا ولويس وعجمى وغيرهم من زمرة المرتزقة الأيديولوچيين الأقل منزلة والذين يتظاهرون بأنهم مثقفون، بمثل ما هى محبطة. تموضع هؤلاء الأكاديميون المارقون والصحفيون المأجورون واحتلوا أماكنهم

داخل شبكة الدوائر السياسية ومراكز الأبحاث النافذة والتى فتحت لهم الأبواب كى يضطلعوا بأدوار عامة فى «الحرب على الإرهاب».

مراكز الأبحاث والمؤسسات السياسية:

ظلت مراكز الأبحاث، واللجان، والمراكز والمعاهد والتنظيمات السياسية الدعامة الأساسية لثقافة واشنطون «الفكرية» على مدى عقود عديدة. بيد أن مستنبت الأنشطة اليمينية فى التسعينيات جعل من تلك المؤسسات ذات تواجد لافت بخاصة. وفى واقع الأمر، فمع بداية عهد بوش، مضت تلك الكوادر التى تتشارك فى روابط مؤسسية تقفز إلى الواجهة لتشكل مجموعات أيديولوجيا تضطلع بمهام كثير فى أجندات البيت الأبيض. تعتبر عضوية زكريا فى العديد من اللجان والهيئات دالة حيث إنها تعتبر مثالا على الشكبة السياسية التى يكمن المعلقون السياسيون والصحفيون والأكاديميون الانتهازيون داخلها، تكشف هذه العضوية والارتباطات عن علاقة حميمة بين مشاهير الصحفيين، والمعلقين السياسيين، والمحررين، وبين النخب الاقتصادية والسياسية النافذين. ليس من المهم إن كانت هذه العلاقات تشكل جماعة سرية أو أخوية تآمرية. إن ما تشكله فى واقع الأمر هو ثقافة سياسية تقوم بصياغة سياسات الولايات المتحدة الخارجية والاقتصادية ثم تقوم بتبريرها، كما أنها تُنتج حملات تعمل على إدماج هذه السياسات بسهولة فى التيار السائد من أجل استجلاب دعمه لها. بتعبير آخر، تعمل هذه المجموعات والأخويات واللجان والجمعيات وسائل لرسم السياسات الخارجية والداخلية والاقتصادية وأيضا لاستنباط الأساليب التى بها يمكن إقناع الشعب الأمريكى بها والحصول على دعمه لها، ذلك لأن الأمريكيين ينزعون إلى مماهاة مصالح النخب السياسية والاقتصادية الأمريكية مع مصالح الطبقة الوسطى من البيض.

تتداخل روابط زكريا وانتساباته لمجموعات داخل المؤسسة السياسية مع روابطه المتشعبة المتسعة بالإعلام والقطاع الخاص. وكرئيس تحرير لإحدى أهم المجلات الإخبارية شمال الأمريكية، فإن لمكانه داخل المؤسسة السياسية دلالاته الكاشفة.

مثلا، كان زكريا عضوا فى «مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية (CSIS) أثناء فترة بوش. كان ذلك المركز قد أسسه دايفيد آبشاير أحد صقور الحرب الباردة والمستشار السابق للرئيس ريجان، ومعه الأميرال الأسطورى أرلى بيرك. أعاد المركز، الذى يرأسه السناتور المخضرم السابق صمويل نان تنظيم نفسه بعد انتهاء الحرب الباردة ليصبح أحد معاهد السياسة الرائدة التى تقدم الاستشارات للهيئة التنفيذية، والكونجرس، ووزارة الخارجية، ووزارة الدفاع ووزارة الداخلية ووزارة الطاقة. يعمل كثير من أعضائه أعضاء فى مجلس سياسات الدفاع، وهو لجنة استشارية خارجية لوزارة الدفاع، يضم CSIS عددا كبيرا من أعضاء الحزبين المطلعين على بواطن الأمور بواشنطون، ومسئولين عسكريين سابقين، ومصرفيين ورجال نفط، و«معلقين سياسيين»، وهو فى هذا يختلف عن كثير من مراكز الأبحاث والمجموعات اليمينية التى يرتبط بها زكريا. يؤوى المركز مقاتلى الحرب الباردة الذين تجمعهم عقيدة مفادها أنه ينبغى أن تلازم التواجد العسكرى القوى فى الشرق الأوسط استراتيجية للاشتباك.

نجح زكريا فى تمييز نفسه بين حلفائه وأنداده من المحافظين الجدد بصفته براجماتيا وواقعيا، وتعود أهمية هذا إلى أن هذه المواقف تربطه بالمحللين السياسيين والشخصيات المؤثرة من مختلف الأطياف بمن فيهم زميله فى عضوية CSIS وأحد صقور الحرب الباردة زبجنيو برچنسكي، مستشار الأمن القومى السابق فى إدارة چيمى كارتر والذى كان مسئولا عن ترتيبات تسليح المجاهدين الأفغان حتى قبل الغزو السوفييتي، بحيث نجح فى أن يجعل منهم قوة سياسية قتالية. وفى واقع الأمر، يذهب پيتر دايل سكوت إلى أن برچنسكى مسئول عن دعم الحركات الإسلامية الوليدة على حدود الاتحاد السوفييتي، بل إنه حتى تحول عن دعم شاه إيران إلى دعم آية الله الخميني. وكشخص يشارك زكريا عداءه العميق للاشتراكية وارتباطه بالنيوليبرالية، فإن برچنسكي، الذى ينتمى للحزب الديمقراطي، يدعو بقوة إلى أهمية حفاظ الولايات المتحدة على هيمنتها الاقتصادية والسياسية فى عالم أحادى القطب، مما يضمر أن

مصالحها يجب أن تجبّ أية مصالح إقليمية. أيضا، يُعرف عن برچنسكى أنه مثل زكريا، متشدد من حيث براجماتيته وواقعيته السياسية. من بين أعضاء مجلس إدارة CSIS السابقين والحاليين شخصيات براجماتية من الحزبين بمن فيهم أشخاص من المؤسسة مثل هنرى كيسنجر ومادلين أولبرايت.

ليست الشبكة الثقافية/ السياسية التى تضم زكريا فريدة من نوعها. يمدنا الاستعراض لشبكة ارتباطاته المتفحص بمثال مبتذل صادم للشبكات التى تشكل بنية حياة الولايات المتحدة السياسية، وتتكون منها ثقافة «المُطلعين على بواطن الأمور» السياسية، وتشكل البنية النشطة للدوائر السياسية المغلقة. يتضح لنا فى حالة زكريا كيف أنه موضع نفسه كمثقف وسط مجموعة من السياسيين المؤثرين وسماسرة السلطة تتمدد عابرة للأحزاب ومحدِّدة ببراجماتية أيديولوجية مشتركة.

وفى هذا الصدد، فإن CSIS نموذج يحتذى به حيث إن دائرته ليست على درجة من عدم الفعالية تجعل منها مجرد مجموعة من منظرى ما بعد الحرب الباردة البرجماتيين المهتمين بالمصالح الاقتصادية والأمنية الأمريكية. بل إن مجلس أمنائه يتكون من مجموعة مفعمة النشاط من كبار المسئولين الذين عملوا فى إدارات نيكسون وكارتر وريجان. يحافظ هؤلاء المسئولون على علاقات حميمة مع معظم شركات وول ستريت الاستثمارية والمصرفية وأيضا مع صناعات الدفاع والطاقة وبخاصة النفطية منها. إن السجلات الوظيفية لهؤلاء المستشارين وأعضاء المجلس مستفيضة بدرجة لا نستطيع معها مناقشتها هنا، كما أن تنوع ارتباطاتهم السياسية والمهنية مذهلة.

وإذا كانت البرجماتية السياسية العامة المشتركة توحّد بين تلك التوجهات المتنوعة، فإن عضوية حفنة من المنظرين المتشددين مثل زلماى خليلزاد وچيمس شلسينجر وريتشارد فيربانكس للمجلس جديرة بالاهتمام. ليس فيربانكس بالبرجماتى أو الواقعي، لكنه منظّر متصلب تتلخص رسالته فى وجوب ترسخ القوة الأمريكية فى العالم العربي. كان هو من أسس «كابيتال وان فاينانشيال كوربوريشن Capital one Financial Corporation ويترأس الآن مجلس إدارة ليالينا Layalina

بروديكشنز، وهى شركة غير ربحية، تُغدق عليها ملايين الدولارات، وتبث إعلاما داعما لأمريكا فى أنحاء العالم العربي. مهمة ليالينا المُعْلنة هى التعاطى مع «التنميطات السلبية للولايات المتحدة» وتحسين صورة أمريكا بين العرب. تتعاشق هذه المهمة مع قناعة زكريا بأن على الولايات المتحدة تسويق «قيمها» فى العالم العربى وإقناعهم بها، وإرساء نفسها نموذجا لهم. تتباهى ليالينا، التى سنناقشها فيما بعد، بمجلس إدارة يضم المشاهير النافذين من أمثال جورج دبليو بوش، وكيسنجر، وجورج شلولتز، ولورانس إجلبرجر، وبرنت سكوكروف وداننيل يرجين.

يرتبط CSIS بأعداد لا تحصى من الهيئات السياسية النافذة، ومجموعات اللوبيهات، ومراكز الأبحاث، وهيئات الحكومة. كثيرا ما تتشارك تلك التنظيمات فى أعضاء بمجالسها ولجانها، فيما تقوم كل منها بوظائف محددة داخل لجان النظام السياسى للولايات المتحدة. وإذا كان CSIS هو مجمع السياسة الذى يتوجه إليه كبار رجال الصناعة والقادة الحكوميين، فإن مؤسسة نيو أمريكا فاونديشن (NAF) هى مركز الأبحاث للبرجماتيين بالتقابل مع حذلقة ويليام كريستول وروبرت كيجان كما تتجسد فى «مشروع القرن الأمريكى الجديد».. NAF مركز أبحاث به أعضاء من الحزبين ويعمل على مباحث وقضايا متعددة ابتداء من سياسة الطاقة وحتى إصلاح العملية الانتخابية. أعضاؤه والمشاركون فيه متنوعو المشارب، ابتداء من الصحفى المستقل نير روزن إلى فوكوياما، وإلى إريك شميدت عضو مجلس الإدارة المنتدب لجوجل وولتر راسل مؤلف كتاب «الروعة الأخلاقية: الإمبراطورية الأمريكية فى الفترة الانتقالية».

ومثل CSIS، فإن برنامج مؤسسة نيو أمريكا تجاه العالم الإسلامى يتناقض مع ما تذهب إليه كثير من مراكز أبحاث واشنطون إذ يؤكد على الاشتباك مع إيران وسوريا وحماس وعلى الالتزام التام بأمن إسرائيل وبجيش أمريكى قوي. لكن وعلى الرغم من نسيج أعضائه متعدد المشارب، يتشارك مجلس NAF مع CSIS فى بعض الأعضاء من كبار رجال النفط بمن فهم دانييل يرجين مدير NAF، وهو عضو بارز فى «مجلس النفط القومي» ومطّلع على بواطن الأمور فى الشئون النفطية منذ زمن

ليس بالقصير. يعتقد أن الاستخدام المستقبلي المستدام للنفط يتوقف على تطوير للتكنولوجيا وإتاحة الوصول إلى المزيد من حقول النفط. وفي واقع الأمر، فإن الشبكة التي نورد تفاصيلها في تتبعنا لأنشطة زكريا تكتمل دائرتها حينما نعلم أنه أيضا عضو في مجلس إدارة NAF ومشارك نشط به.

مركز البرجماتيين:

قد يستنبط البعض أن عضوية زكريا في تلك المؤسسات، والمجالس، والهيئات السياسية لا تعتبر شهادة دامغة على مكانته المؤثرة في الوسائط الإعلامية الأمريكية. علاوة على ذلك، فقد يجزم آخرون بأن عمله عضوا في مجالس أمنائها لا يقتضي سوى قليل من التفاعل مع الأعضاء الآخرين وإسهام أقل في مجريات الأمور الفعلية لتلك المؤسسات. بيد أن تفحصا للشبكة التي تتشارك في أعضاء مجالسها يثبط هذا التفسير التبسيطي لارتباطات زكريا المهنية وحجتنا في هذا مزدوجة. إن ما نورده من تفاصيل تفاعل زكريا ولويس وأمثالهما مع سماسرة السلطة، والخبراء الحكوميين وصناع السياسية يحدد الوضع الصحيح لارتباطاتهم السياسية ومعتقداتهم ودوافعهم. لكن عضويتهم لتلك الجهات وروابطهم المختلفة تبين بوضوح الدور النشط الذي يلعبونه في تشكيل الرأي العام بالولايات المتحدة وخدمة سياساتها الخارجية وصنّاع سياساتها. ولهذا السبب يركز هذا الفصل على دورهم النافذ كمنظرين مؤدلجين أثناء تسعينيات القرن الماضي وسنوات رئاسة بوش.

وعلى حين أن زكريا، بل وحتى لويس، قد لا يكونان من واضعي السياسات أو الاستراتيجيات، فإن مشاركتهما في تلك المجموعات تضفي مصداقيتهما على تطبيع الفرضيات الجوهرية التي تشكل أساس قوانين «مناهضة الإرهاب» الداخلية، وسياسة الولايات المتحدة بالشرق الأوسط، وهي سياسة يزعم هذا الكتاب أن جوهرها هو الإسلاموفوبيا، وكراهية العرب. ظل زكريا، وزميله المعلّق الصحفي توماس فريدمان، أكثر حرصا دائما من برنارد لويس وفؤاد عجمي ورجال الهجمات السياسية المأجورين من أمثال دانييل پايپس. فعلى حين أنه يرتدي شارة النيوليبرالية

مثلما يرتدى فريدمان شارة البرجماتية «الليبرالية»، فإن مواقف زكريا الخاصة البرجماتية ظلت تتيح له دائما الظهور بمظهر اللامتحيز «الموضوعي»، على حين أن أعماله وأنشطته، وكما سنوضح، تفضحه بصفته فأساً يُشحذ للهجوم على العرب والمسلمين وذلك من خلال عدائه الخبيث لهم.

من الصعب تحديد أعضاء مجالس مراكز الأبحاث والمؤسسات والهيئات السياسية ومستشاريها بدقة وذلك لأن صفوفهم تتمدد وتتقلص حسب التحاق الأعضاء بالخدمة العامة والإدارات الرئاسية وتركهم لها، وفى تلك الأثناء يتم إعداد منظرين مؤدلجين جدد ويتقاعد المستشارون المُسنون أو يُتَوَفَّوْن. يدعم هؤلاء الأعضاء أيضا مستوى آخر من العلاقات الاجتماعية مع أوساط نخب السلطة والنخب الاقتصادية. مثلا، فإن زكريا أيضا عضو فى «مجموعة آسين الاستراتيجية» التى يضمها معهد آسين الذى يترأسه برنت سكوكروفت وهو أيضا عضو فى مجلس CSIS. يشكل زملاء زكريا فى آسين قائمة مألوفة من صناع السياسة والدبلوماسيين والوزراء وكبار المسئولين الحكوميين السابقين من الحزبين. من بين هؤلاء مادلين أولبرايت، وريتشارد أرميتاج، ودنيس روس، ومارتن إنديك الأب، وريتشارد لوجار الأب. كان تشاك هايجل الأب، وريتشارد هاس و ديان فينستاين السفراء السابقون، وعضوا إيباك من جماعات الضغط الصهيونية دنيس روس ومارتن إنديك، كانوا جميعهم شخصيات بارزة فى إدارة كلينتون، وكما سنرى، سيعاودون الظهور فى إدارة أوباما. أيضا، فإن آسين جروب ملتقى مشترك لزكريا وفيربانكس، وهما أيضا أعضاء فى «جمعية الزملاء» التى تتكون من هؤلاء الذين تبرعوا بأكثر من ٢٥٠٠٠ للمجموعة.

إن العلاقة الحميمة بين أعضاء تلك المجموعة وغيرها هى نقيض للروابط المهنية فى أوساط صناعة السياسات بواشنطون ونيويورك. وآسين جروب هى نسخة مصغرة من المجموعات السياسية الثلاث بالغة السطوة التى ينتمى زكريا إلى عضويتها جميعها. وهذه المجموعات هى بيلدربرج، واللجنة ثلاثية الأطراف، ومجلس العلاقات الخارجية. وجميع أعضاء تلك المنظمات لهم أصولهم فى منظومة وزراء إدارات ريجان وكلينتون

وبوش، وكبار رجال الصناعة والمثقفين الذين نجدهم في CSIS وAFN وجهات أخري. مثلا يترأس ريتشارد هاس، عضو مجلس إدارة آسين، مجلس العلاقات الخارجية (CFR) واسع النفوذ. كان هاس أيضا مستشارا لكولن باول وزير الخارجية، ولجورج إيتش بوش أثناء حرب عاصفة الصحراء.

وبدون أدنى شك، فإن مجلس العلاقات الخارجية هو المركز الأقوى تأثيرا ونفوذا في مجال السياسة الخارجية، وقد يليه CSIS. كان من بين أعضاء مجلس إدارته شخصيات أعضاء في CSIS مثل برجنسكي، وجوزيف ناي، ومادلين أولبرايت، وكولن باول، وريتشارد هولبروك، ورئيس معهد بروكينج، ومحرر تايم مجازين سابقا، ونائب وزير خارجية كلينتون ستروب تالبوت، وعضو مجلس الإدارة المنتدب بمجموعة كارلايل دايفيد روبنستاين. أيضا، فإن زكريا عضو في مجلس إدارة CFR (مجلس العلاقات الخارجية) ومعه الأكاديمي الوغد والصحفي المأجور فؤاد عجمي الذي سنناقشه فيما بعد. مثيرة للاهتمام هي قيادة هاس لمجلس العلاقات الخارجية، حيث إنه لم يكن جزءا من جماعة المحافظين الجدد السرية الذين تسللوا إلى إدارة بوش وترسخوا فيها. الأحرى أنه كان جزءا من «شلة» منافسة من المحافظين في دائرة بوش الأب الذين يتبنون مواقف تقليدية في السياسة الخارجية. ساعده هذا على احتلال موقع ملائم مكّنه من تشكيل مجلس «برجماتي» من أعضاء الحزبين يقدم الاستشارات لوزارة الخارجية والكونجرس والبيت الأبيض أيا كانت الإدارة الحاكمة.

استدعت هذه البرجماتية توجيه النقد من قبل مراكز الأبحاث الموالية لإسرائيل مثل «منتدى الشرق الأوسط» لمجلس العلاقات الخارجية لمعارضته «أحادية، الولايات المتحدة وعملياتها العسكرية» في المنطقة. تخفي لهجة مجلس العلاقات الخارجية «غير المتحيزة» حقيقة أنه يضم كثيرا من المعلقين والمسئولين السياسيين ممن يعبرون بوضوح واتساق عن وجهات نظر معادية للمسلمين ومعادية للعرب. ظلت المواقف التي يتخذها أعضاء مجلس إدارته بمن فيهم أولبرايت وتالبوت ليكودية موالية لإسرائيل

بأسلوب لا يتزعزع. وفي واقع الأمر، فإن إلقاء نظرة خاطفة على قائمة «خبراء» الشرق الأوسط بمجلس العلاقات الخارجية تبين وجود نخبة من اللاعبين السياسيين المعادين للعرب والمعادين للمسلمين بمن فيهم «مخبرون محليون» من أمثال محمد بزّي.

بيد أن أكثر أعضاء المجلس جدارة بالاهتمام هو إليوت إبرامز المتخصص رفيع المنزلة في دراسات الشرق الأوسط، وهو أيضا عضو في مؤسسة هريتدج، ومجموعة مشروع القرن الأمريكي الجديد، ومعهد هدسون ومنتدى الشرق الأوسط. أيضا، كان بين الموقعين على خطاب مفتوح يدعو للإطاحة بالنظام السوري، وأيضا الخطاب المفتوح سيئ السمعة الذي دعا عام ١٩٩٨ الرئيس كلينتون للإطاحة بصدام حسين. لم يلعب فقط دورا مؤثرا في فضيحة إيران/ كونترا، بل كان أيضا مديرا رفيع المستوى لشئون الشرق الأدنى وشمال إفريقيا في مجلس الأمن القومي أثناء رئاسة بوش الأب. وبصفته مساعد بوش الابن الخاص والمدير رفيع المستوى للديموقراطية وحقوق الإنسان والعمليات الدولية، يُعترف به كأحد مهندسي «أجندة الحرية» التي تبناها بوش. عُرف بأنه أكثر المحافظين الجدد تطرفًا وتعكس آراؤه عن الشرق الأوسط آراء مرشده وصديقه ريتشارد بيرل وتستمد جوهرها أيضا من ولائه القتالي لإسرائيل ولسياساتها الأكثر تطرفا تجاه الفلسطينيين. أدان إبرامز اتفاقيات أوسلو ودعا فيما بعد إلى إزاحة ياسر عرفات عن رئاسة السلطة الفلسطينية وصادق على حصاره داخل مبنى المقاطعة في رام الله الذي احتجز داخله لمدة شهرين.

وعلى الرغم من الدور القيادي الذي لعبه في تشكيل سياسة إدارة بوش للشرق الأوسط، فإن إبرامز لم يتلق أي تدريب مهني رسمي في دراسات الشرق الأوسط. يعتبر نموذجا معياريا للمسئولين السياسيين من ذوي الإلهام الأيديولوجي والذين أرشدوا الأجندة الأجنبية للبيت الأبيض بعد ٩/١١. كان لإبرامز دور مفتاح أثناء سنوات بوش في «تصنيع الإجماع» لعسكرة الولايات المتحدة وتدخلها في الشرق الأوسط بترويجه معتقداته الأيديولوجية التي تصور الأنظمة العربية بصفتها أنظمة

منبوذة تشكل تهديدا دائما للديموقراطية والحرية وحقوق الإنسان، ترويجها من خلال قنوات الإعلام الخلفية. قد يقال إن الاختلافات غير الخافية فى درجات التعصب للصهيونية بين إبرامز وزكريا تعطى مصداقية لحقيقة أن مجالس السياسات الخارجية «اللاحزبية» تمثل طيفا من الآراء المختلفة وبخاصة فى عصر أوباما. بيد أنه، فى واقع الأمر، فإن مثل هذه الاختلافات تمنح قوى جذب أكبر لزكريا حيث تظهر آراءه النيوليبرالية والكارهة للعرب محسوبة وحريصة بالتقابل مع آراء إليوت إبرامز غير المتوازنة.

مجموعات وضع الاستراتيجيات وهيئات الخبراء:

شبكات زكريا أكثر اتساعا وخبثا من شبكات برنارد لويس، حيث يلعب دورا بارزا ومرئيا فى تشكيل الثقافة السياسية الأمريكية، وفى الإعلام كما توضح عدة برامج حوارية يقوم فيها بدور المضيف وأحدثها برنامجه الأسبوعى بشبكة سى إن إن المسمى «الميدان العام الكوكبي». وكما سنري، فعلى الرغم من أن لويس يُبقى على صلات فى مراكز السلطة لكنه، وبشكل أساسي، مصدر للخبرة يلجأ إليه المحافظون الجدد واليمين الموالى لإسرائيل، متى كان يحدث بخاصة أثناء إدارة بوش. وعلى حين أن صلة زكريا بتلك الجبهات ذاتها، ليست على نفس القدر من الحميمية التى تتيح له تقديم الإرشاد والمشورة الأيديولوجية، إلا أن زكريا من جهة أخري، يتقاسم الطاولة مع نخب السلطة والسياسيين الموجودين على قوائم مراكز الأبحاث واللجان وغيرها من المنظومات التى تناولناها بالنقاش. وفى واقع الأمر، فإن براجمتية زكريا تمثل نقيضا «لمثالية» لويس من حيث تعصب الأخير فى موالاته لإسرائيل.

من الجدير بالاهتمام أن زكريا ولويس لا يُبقيان فقط على عضويتهما فى المؤسسات التى تشكل سياسات الولايات المتحدة، بل أيضا فى أقوى تنظيمين دوليين أى «اللجنة ثلاثية الأطراف» و«مؤتمر بيلدربرج». وإذا تحينا جانبا نظرية المؤامرة، فإن اللجنة ثلاثية الأطراف هى المناظر الدولى لمجلس العلاقات الخارجية من حيث الجوهر، أنشأ اللجنة دايفيد روكفلر عام ١٩٧٣ وكان هدفها المحدد «تبنى تعاون أوثق بين

مناطق العالم الصناعية الديموقراطية الرئيسية التى تتشارك مسئوليات القيادة فى النظام الدولى الأوسع». يتقابل أعضاؤها سنويا كمجموعة، وأيضا بشكل منفصل فى مؤتمراتهم الإقليمية. علاوة على ذلك فهم يقومون بنشر أوراق بحثية سياسية مؤثرة مثل «الاشتباك مع إيران وإقامة سلام فى الخليج الفارسي». إن الأسلوب الدورى الذى تتبعه اللجنة فى العضوية والقيادة يعمل على إشراك أقوى السياسيين ورجال الصناعة والصحفيين والمصرفيين ورجال المال والمسئولين العسكريين السابقين والأكاديميين على مستوى العالم فى المسئولية. من المهم أن نبين أنه على الرغم من أن «اللجنة» تعترف بـ «الاستقلال المتنامي» للأمم، فلا يوجد أى فرد أو بلد عربى فى عضويتها.

زكريا، وبرنارد لويس ومعهم أكاديميون مُسيّسيون آخرون من أمثال الراحل صمويل هنتنجتون وفرانسيس فوكوياما وجوزيف ناى أعضاء فى «اللجنة». ثمة عديد من أعضاء مجلس العلاقات الخارجية يشاركون فى عضوية «اللجنة» بمن فيهم برچنسكى الذى هو فى واقع الأمر عضو مؤسس لـ «اللجنة». من بين الأعضاء الآخرين چيمى كارتر وچورچ إيتش. بوش وبيل كلينتون وديك تشينى وپول وولفويتز وهنرى كيسنجر، وبرنت سكوكروفت، ووليام كوهين، ولورانس إنجلبرجر ودايڤيد جرجن، ومعهم حفنة من السناتورات النافذين المعادين للمسلمين مثل توم فولي، وديان فينستاين وچاك دانفورث. وفيما يُجزم دائما أن «اللجنة ثلاثية الأطراف» تسعى لإقامة «حكومة عالم واحد»، فما علينا سوى النظر إلى بياناتها الصريحة كى نفهم أن مهمتهم هى الحفاظ على هيمنة الشمال المتقدم على البلدان المتخلفة من خلال حملات «عصف المخاخ». يسمون هذا الحفاظ على «القيادة» الدولية للبلدان المتقدمة فى أمريكا الشمالية وأوربا وآسيا من أجل أن «تظل المرتكزات الرئيسية للنظام الدولى الأوسع» فيما تأخذ «فى الحسبان التحول الدراماتيكى فى النظام الدولي» فى وقت فيه «القوة [فى سبيلها] للانتشار على مساحة أوسع». وعلى الرغم من كل السرية التى تحيط بها اللجنة ثلاثية الأطراف» مهمتها، فإنها تبدو على قدر

كبير من الوضوح: الحفاظ على هيمنة الغرب الاقتصادية والسياسية وفى هذا الصدد فإن لويس وزكريا قد أسهما بما لديهما من «خبرة» لتيسير هذه المهمة.

وفى واقع الأمر، فقد كانت اللجنة ثلاثية الأطراف قد انبثقت من منظمة أخرى مغلقة «خاصة» نخبوية اسمها «مؤتمر بيلدربرج» – أسميت على اسم الفندق الهولندى الفاخر الذى عقد فيه أول اجتماع لها عام ١٩٥٤ – تجتمع مرة كل عام من خلال توجيه الدعوات فقط. اهتمام مؤتمر بيلدربرج المعلن هو توطيد العلاقات بين صناع الرأي، والكوربوريشنات، والحكومات من أجل إبقاء الغرب على قمة الهيمنة الرأسمالية. وبالإضافة إلى لويس، ظل كل واحد من زملاء زكريا من أعضاء مجلس مركز العلاقات الخارجية بين الأشخاص المائة والثلاثين الذين يُدْعَون إلى مؤتمر بيلدربرج. فى عام ١٩٧٩، حضور لويس المؤتمر وعرض نظريته عن «قوس الإسلام» وبلقنة الشرق الأوسط. تم ذكر حضور لويس لعدد من مؤتمرات بيلدربرج، ومن بينها ذاك الذى عُقد فى أعقاب عاصفة الصحراء عام ١٩٩١، ومؤتمر عام ٢٠٠١، على موقع المؤتمر الإلكترونى إلا أنه من الصعب تأكيد حقيقة حضوره إذ إن مُنظمى بيلدربرج يحرصون على سرية قائمة المدعوين ولا ينشرونها إلا فى الأوقات التى تناسبهم. تتضمن القائمة الرسمية لمن حضروا المؤتمر عام ٢٠٠٩ شخصيات أمريكية بارزة من بينها پول وولفويتز، وريتشارد پيرل، وريتشارد هولبروك، ودايڤيد روكفلر، و روبرت زوليك رئيس البنك الدولى والمدير السابق لمركز الدراسات الدولية والاستراتيجية CSIS، وكونداليزا رايس مستشارة الشئون الخارجية وعضو مجموعة أسين.

فى عام ٢٠٠٣، حضر زكريا الاجتماع المغلق بفرنسا الذى كان قد اقتصر على شخصيات من الذكور الغربيين ومعهم كثير من أعضاء المجالس واللجان المذكورة سالفاً بمن فيهم كيسنجر، وريتشارد هاس من مركز العلاقات الخارجية وعضو الكونجرس اليمينى تشاك هايجل والصحفى توماس فريدمان. عقد ذاك الاجتماع فى مايو بعد أسابيع معدودة من بدء غزو العراق. تم تمثيل إدارة بوش، والصناعات النفطية، وكبار الشخصيات الإعلامية جميعهم فى ذلك المؤتمر. كان من بين المدعوين

الآخرين شلة ديك تشيني وبول وولفويتز وريتشارد بيرل وچون بولتون، ومعهم بارونات النفط والإعلام والمصارف من أمثال دايڤيد روكفلر، ورئيس شركة شل چيرون فان درڤير وآندرز إلدروب رئيس الشركة الهولندية وكونراد بلاك، عملاق الإعلام ومالك صحيفة چيروسالم پوست المحافظة. وحقا، فإن أحد أساليب فهم تلك المنظمات والمجالس والجمعيات، ناهيك عن المؤتمرات على شاكلة بيلدربرج، هو النظر إليها بسذاجة على أنها تنظمات مهنية تقام من أجل تجميع الأفضل والأكثر ذكاء فى محاولة لحل مشكلات العالم، فى حين أن الأسلوب الآخر، فهو رؤيتها بصفتها تنظيمات مؤامراتية. أما نحن، فنرفض بشدة نظريات المؤامرة التى تعتبر بيلدربرج واللجنة ثلاثية الأطراف مجموعات نخبوية ضمن فريق أوحد يحكم الكوكب. الأحرى أن مؤتمر بيلدربرج الذى عقد عام ٢٠٠٣ يوضح كيف تتجمع النخب الرأسمالية الكوكبية من أجل تشارك الاستراتيجيات ووجهات النظر حول كيفية الحفاظ على هيمنتها على الأسواق الكوكبية، وبخاصة أسواق الصناعات المهمة مثل الصناعات النفطية، وعلى قيادتها للسياسة العالمية وبخاصة فى أوقات الأزمات الكوكبية. بتعبير آخر فإن هذه المجموعات والمجالس هى تحديدا ما تصرح به عن نفسها. إن هذه المؤتمرات السنوية، واللقاءات التى تعقد فى المنتجعات والمعازل هى التى فيها يلتقى رجال السلطة، والنخب الاقتصادية من أجل استباق التحديات الوشيكة لقبضتهم هم والدول الصناعية الكبرى على السلطة ووضع الاستراتيجيات لمجابهة ذلك. وحسب ما جاء فى بيان اللجنة ثلاثية الأطراف، فإن المجموعة تنوى أن تتداول «الأفكار المشتركة والقيادات للبلدان الأعضاء فى اللجنة (ومعهم المنظمات الدولية الرئيسية) والتى ظلت الدعائم الأساسية للنظام الدولى الأوسع». أو، وحسب ما جاء فى بيان صادر عن «بيلدربرج» فإن الاجتماعات هى «نقاش، ليس للنشر، حول موضوعات لها أهمية راهنة، بخاصة فى مجالات الشئون الخارجية والاقتصاد الدولي». وعلى الرغم من الاختلافات المعترف بها فى مواقف الدول الغربية وتجاربها، فإن أعضاء المؤتمر يتفقون حول حاجة الدول المتقدمة للخروج برؤية موحدة حول الأمن والتنمية الكوكبية

بقولهم «تظل ثمة حاجة واضحة لتطوير مزيد من الفهم يمكن من خلاله المواءمة بين تلك الاهتمامات المختلفة».

وبوضوح تام، تستخدم تلك المؤتمرات، وورش العمل، والاجتماعات، سواء تلك التى ترعاها مجموعة أسين، أو الأخرى الأكثر تفصيلا وتعقيدا كتلك التى يرعاها بيلدربرج، آليات تقنية تتبادل من خلالها تلك الشخصيات الأفكار، وتنسق الأساليب اللوجستية التى تنفذ بواسطتها تلك المخططات. بيد أنه، ومن أجل أهداف هذا الكتاب، فإننا نفهم تلك المجالس والمنظمات والمؤسسات، والمجموعات المنبثقة عنها، واقعيا بصفتها أخويات تتداول فيما بينها تفاهمات ونماذج معيارية تشكل أساس السياسة الاقتصادية الخارجية للولايات المتحدة والعالم المتقدم، وبخاصة فى الشرق الأوسط. فعلى مدى العقدين الآخرين، غدت النماذج المعيارية للإسلاموفوبيا، والمعادية للعرب دعامات للمدركات والسياسات المنبثقة عن تلك التجمعات. ليست شبكة نخب السلطة التى تضفى الشرعية على برنارد لويس وتريد زكريا وتمنحهما حق التحدث باسمها، ليست فريدة من نوعها أو حتى منذرة فى حد ذاتها. بل يمكن القول إنها ليست ذات أهمية محددة. تتيح هذه الشبكات «النقاشات» و«تبادل الأفكار» التى تعمل على تطبيع النماذج المعيارية الأيديولوجية. لا يُعد المشاركون مولدين لتلك النماذج بقدر ما هم موظفون مهمتهم الأساسية مراجعة منظومة الروايات التى تجعل عددا من السياسات المحددة ممكنة. يعمل «المفكرون» والصحفيون ممن يشاركون فى تلك المجموعات، مثل لويس وزكريا على إضفاء الاتساق والمنطق على تلك الروايات، وعلى انتشار تلك النماذج المعيارية ومنحها مظهر المصداقية الفكرية. سيبين الفصل التالى أنهما ليسا محدثين لأية فكرة أو نموذج (بخلاف ليو ستراوس، مرشدهما النيوليبرالى مثلا). الأحرى أنهما يقومان بتجميع تنوعات من التوجهات الفكرية، والخطابات، والنماذج المعيارية التى تُتداول فى أوساط النخب السياسية والاقتصادية للبلدان المتقدمة، والمواقف الأيديولوجية وينظمانها على شكل روايات يمكن استخدامها مرتكزات أيديولوجية توضع حولها الاستراتيجيات التى تضمن طول عمر القوى المهيمنة.

لا يمكن التقليل من قيمة إسهام زكريا فى الخطاب العام الذى أحاط بالحرب على الإرهاب التى تبناها بوش حيث إنه كان مروّجا مرنيا لسياسات بوش ودعا إلى تغيير الأنظمة منذ الأيام الأولى لإدارته. لزكريا مكانه الراسخ فى شبكة من مراكز الأبحاث، والجمعيات، واللجان، والمنظمات التى تتشارك فى مواقف برجماتية تحدد توجهات الاستراتيجيات التى تضمن الحفاظ على هيمنة الولايات المتحدة على العالم. بيد أن واقعية زكريا مشبعة بقدر مفرط من الإسلاموفوبيا الخصبة التى توظّف لربط السياسيين البرجماتيين من أمثاله بدعاة الإسلاموفوبيا المثاليين من أمثال برنارد لويس. أمد موقع زكريا داخل الشبكة المعقدة من الشخصيات والمؤسسات النافذة «الواقعيين» و«البرجماتيين» من الحزبين، برواية توضح ضرورات تغيير الأنظمة فى الشرق الأوسط. وفى هذا الصدد، جمع زكريا بين البرجماتية والمثالية الأخلاقية، وبين التوجهات المحافظة القديمة وتوجهات المحافظين الجدد.

شبكة برنارد لويس المؤسسية:

فيما أنه قد يكون لزكريا المكانة المهيمنة فى التيار السائد، وفى شبكة نخب السلطة والقوة، يحتل برنارد لويس القمة فى أوساط المستشرقين الجدد ودوائر المحافظين الجدد اليمينية والجماعات الموالية لإسرائيل فى أمريكا الشمالية. وعلى حين أن هذه الشبكة قد تكون أصغر [من شبكة زكريا] إلا أنها أقوى. وعلى حين أنه ليس عضوا فى جميع المجالس أو اللجان التى يتمتع زكريا بعضويتها، إلا أن رفاقه المقربين الذين يشاركون فى توجهاته الأيديولوجية هم غالبا من قادة تلك المؤسسات والمنظمات أو من المشاركين فيها. فى نهاية التسعينيات، وأثناء سنوات بوش، كانت أية إحالة إلى أعمال لويس المشبعة بالإسلاموفوبيا تعتبر دلالة على الثقافة الرفيعة فى إعلام التيار السائد والدوائر اليمينية وجماعات النشطاء.

يمكن الأخذ بكتابات وأقوال ريوبل مارك جرتشت شهادة على حضور لويس القوى بين مجموعة المتعصبين الأيديولوجيين التى أطلق عليها فيما بعد اسم «الثلاكنة». فى عيد ميلاد لويس التسعين كتب جرتشت مقالا تم تداوله على نطاق واسع يطرى فيه

على لويس بعنوان «آخر المستشرقين». كان جرتشت، العميل السابق بالسى آى إيه، والمدير السابق لبرنامج الشرق الأوسط بالأمريكان إنتربرايز إنستيتيوت، كان أيضا تلميذا للويس. مارس ضغوطا حماسية على البيت الأبيض من أجل غزو العراق، وكان مع زكريا ولويس ضمن دائرة وولفويتز المغلقة لعصف المخاخ. اكتسب شهرة بعد تصريح لاقى رواجا إعلاميا حول إيران فى برنامج فرانت لاين بتليفزيون PBS، حيث قال «أحد الأسباب التى من أجلها يريد الإيرانيون الحصول على أسلحة نووية هى أن الإرهاب موجود فى دناهم DNAs».

وفيما لا يمكن اعتباره مؤهلا للحكم على الأعمال الأكاديمية، إلا أن هذا الجاسوس السابق على إيران يرى عن صواب أن للويس تأثيرا حقيقيا على دوائر القرار الداخلية. يقول فى مقال له إن «كتابىْ [لويس] الموجزين اللذين صدرا فى أعقاب ٩/١١ وكانا على قائمة أفضل المبيعات – «أين الخطأ؟» و«مأزق الإسلام» – «لعبا دورا فى مساعدة كبار مسئولى الإدارة على فهم أفضل للسياق التاريخى للمسلمين المتطرفين الذين اعتنقوا الإرهاب وسيلة للتعبير عن عقيدتهم». ثم يمضى جرتشت ليمتدح المدى الواسع لتأثير لويس:

«إن مقالاته الإبداعية عن النزعات القتالية الإسلامية بدوريات أطلنطيك مانثلي، وفورين أفيرز، وكومنترى ونيوريبابليك وجدتْ طريقها إلى داخل مؤسسة السياسة الخارجية.. وربما يمكننا القول إن كتابات لويس المحملة بظلال المعانى عن الديمقراطية فى العالم الإسلامي، ومعها طلبته السابقون وأصدقاؤه العديدون قد ساعد على تبلور فهم الإدارة الآخذ فى التطور سريعا لسياسات الشرق الأوسط وعقيدته بعد ٩/١١».

لا يجوز التقليل من دور لويس بصفته الوجه الأكاديمى لإدارة بوش. بيد أنه علاوة على ذلك، فقد كان للويس أثر كبير من خلال تقديمه رواية تاريخية وثقافية واجتماعية مهمة مكّنت بوش/ تشينى من تأليف ترنيمتهما عن الحرب مهتدين بسطورها، وسنقوم فى الفصل الثانى بفحص روايته ومعها رواية زكريا فيما يكتفى هذا الفصل بتوضيح

حقيقة أن لويس لم يكن شخصا على قائمة الانتظار مثل فؤاد عجمى وغيره من الأقل الأهمية الذين لا يصلحون سوى للاستشهاد بهم على أحابيل جماعة المحافظين الجدد السرية التى كانت قد استولت على واشنطون، ذلك لأن لويس كان جزءا عضويا من تلك المجموعة ذاتها.

ومثلما شارك زكريا فى دورة «عصف المخاخ» التى قادها وولفويتز بعد ٩/١١ للترويج لغزو العراق، شارك لويس فى ورشة عمل فى نوفمبر ٢٠٠٢ بعنوان «العراق: استطلاع ما بعد صدّام». كان حضور لويس لتلك الورشة عن العراق متوقعا إذ إن من نظمها كانت هى مجموعة المحافظين الجدد، والشلة الموالية لإسرائيل التى قامت بكتابة ورقة بنيامين نتانياهو البحثية بعنوان «القطيعة التامة Clean Break» عام ١٩٩٦، والتى تشكل منها أيضاً «مجلس سياسات الدفاع الخاص بالعراق» وعمل أعضاؤها مستشارين خارجيين للبنتاجون لمساعدته على صياغة سياساته؛ كان قادة هذا المجلس ومنسقو ورشة العمل هما ريتشارد بيرل ودوجلاس فيث مساعد وزير الدفاع السابق. وفيث، مثل بيرل، صهيونى يمينى شهير، أسماه الجنرال تومى فرانكس، الذى كان آنذاك قائد قوات الولايات المتحدة بالشرق الأوسط «أغبى رجل على الكوكب». يذكر تقرير ورشة العمل المؤلف من ست صفحات أن تلك المناسبة التى استمرت يومين «جمعت بين أكثر من سعبين أكاديمياً، وخبيراً، وممارساً، لمناقشة تحديات ما بعد التدخل والتى تواجه صناع السياسة فى العراق». كانت هذه الورشة من بنات أفكار تشينى نفسه بنفس القدر الذى كانت به من إبداع مجموعة إندرو كارد وكارل روف من البيت الأبيض الذي، وكما يبين توماس ريكس، كان بحاجة لتبريرات لغزو العراق لا يستطيع سوى الأكاديميين و«المثقفين» توفيرها.

خطاب المُعلّم ورؤية التلاميذ:

لويس صديق قديم لبول وولفويتز وريتشارد بيرل وأيضا لزلماى خليلزاد. وفى واقع الأمر، فقد اعتبر بيرل لويس مرشده فى شئون الشرق الأوسط. أثناء سنوات بوش، كان البروفسور يتباهى بأنه قام بزرع لاعبين مفتاح فى وزارة الدفاع والبيت

الأبيض، وكان بين هؤلاء هارولد رود الصهيونى المتعصب وصنيعة لويس وصديقه الحميم. عمل رود محللا مقيما لـ «الإسلام» بوزارة الدفاع أثناء أكثر أيام إدارة بوش قتامة، ويقرر البعض أن مكالمة هاتفية أجراها لويس مع بيرل ضمنت تعيين رود فى ذلك المنصب بوزارة الدفاع. وفى وزارة الدفاع، عمل رود عن قرب مع دوجلاس فيث ودايفيد ويرسمر للتخلص من المتخصصين غير المؤدلجين الموجودين بالمناصب المفتاح بالوزارة والإتيان بأمثالهم من المعادين أيديولوجيا للعرب والمسلمين الذين يتوقع منهم أن يقوموا بالتخطيط لإعادة ترتيب مراكز القوة فى العالم العربى بدءا بتشكيل عراق جديد. كان قد تم تعليق إخلاء طرف رودس الأمنى فى التسعينيات وذلك للاشتباه فى أنه قام بتمرير أسرار إلى إسرائيل، كما قام الإف بى آى بالتحقيق معه عام ٢٠٠٤ لنقله معلومات عسكرية سرية للغاية إلى الموساد.

بيد أن رودس ليس سوى لاعب واحد فقط فى شبكة أوسع من عملاء المحافظين الجدد السياسيين، واللوبيهات، ومراكز الأبحاث التى كانت تشكل شبكة مجموعة بوش السرية. غير أن دور لويس فى تلك الشبكة لم يبدأ فى أعقاب ٩/١١، الأحرى أن علاقته بحركة المحافظين الجدد ترجع إلى ثمانينيات القرن الماضى حينما تصدى نيابة عنهم لتشويه سمعة إدوارد سعيد، وكان هذ بالطبع جزءا من حملة أوسع ضد سعيد المفكر والناشط الفلسطينى الأمريكى البارز. بحلول التسعينيات كان لويس قد تحالف مع وولفويتز. وغيره من البارزين فى دوائر القرار الداخلية بعد أن قام الشاب، ريتشارد بيرل «بتقديم الرجل الإنجليزى [لويس] إلى تلك الجهات بواشنطون»، حيث تعرف لويس فى تلك الدائرة على عدد من الشخصيات القوية المحافظة الموالية لإسرائيل والتى شكلت فيما بعد «شلة» بوش. لم يتركز وضع لويس فى مجموعة وولفويتز/ بيرل على البيزنس فقط بل على حقيقة أنهم كانوا يتشاركون فى تعصب أيديولوچى عام. عبَّر عمق الروابط بين لويس وهذه المجموعة وولائه لها عن نفسه حينما تولى البروفسور دورا قياديا فى لجنة الدفاع عن «سكووتر ليبي».

فى عام ٢٠٠٧، منح ذا أمريكان إنتربرايز إنستيتيوت لويس جائزة إرفينج كريستول مما يقطع بالعلاقة الحميمة بينه وبين أعلى مستويات صنّاع السياسة. كان

من بين من منحوا هذه الجائزة قبله روبرت بورك، وديك تشيني، وجين كيركباتريك، وصقر المحافظين الجدد مايكل نوفاك، ومرشد المحافظين الجدد نورمان بودهورتز، ورونالد ريجان. كان جرتشت، وريتشارد بيرل وجون بولتون من بين أصدقائه وتلاميذه السابقين الذين حضروا مراسم الاحتفال، كما ألقى ديك تشيني، نائب الرئيس، الخطاب الرئيسي. أوضح تشيني، في معرض تكريمه لويس، إعجابه به بصفته المرشد الأخلاقي لنهج البيت الأبيض تجاه الحضارات، ونص تحديدا على أن:

«برنارد لويس يعرف عظمة الحضارة الإسلامية.. كما أنه، مثل أي شخص موجود آخر، يفهم طبيعة الصراع الحالي بين الحرية والخوف، بين العدالة والقسوة. كما يدرك أن الحرية ليست محنة – إنها حق لرجال ونساء في نصف العالم البعيد عنا، مثلما هي حق لنا. وبما أن الصراع القديم من أجل التحرير والمساواة يتجدد مرة أخرى في زماننا، سنستمر في الاعتماد على أسلوب تفكير برنارد لويس الصارم».

في خطابه هذا، ومثل خطاباته الأخري، يحدد ديك تشيني بوضوح رواية لويس عن الحضارات والتي سنتفحصها في الفصل التالي بوصفها مصدر سياسات البيت الأبيض في المنطقة.

الأهم من صداقته لوولفويتز، أو دوره الإرشادي بالنسبة لبيرل، هو أنه قد نتج عن تداوله داخل تلك الدوائر علاقة مع ديك تشيني، بدرجة أن بوب وودوارد قال عن لويس إنه «أحد المفضلين لدى تشيني». دائما ما لجأ نائب الرئيس إلى لويس طالبا المشورة، ومثل عجمي، كان يسميه «صديقا». وفي واقع الأمر، فحينما اختبأ تشيني في الأسابيع التي تلت ٩/١١، ذهب لويس عدة مرات لتناول العشاء معه بمفردهما في «مواقع سرية». لم يوفر لويس لتشيني وشبكة المحافظين الجدد، والصهاينة، والمعادين للإسلام فقط الرواية التي تبرر التدخل، بل أمدهم أيضا بتبريرات ملزمة أخلاقياً للعسكرة، والإمبريالية، بل ولحرب صليبية جديدة.

دائما ما استخدم الصيت الذي يتمتع به لويس، وبأسلوب روتيني، لدعم السياسات التي كان عقل نائب الرئيس قد تفتق عنها بالفعل. مثلا، اتبع تشيني اقتراح لويس

القديم بأنه ينبغى أن يكون للولايات المتحدة منفذ دعاية قوى فى العالم العربى من أجل نشر رسالة البيت الأبيض «الحقيقية» ولمجابهة المدركات الخاطئة عن الديموقراطية الأمريكية. تحدث تشينى فى خطاب له بمعهد هدسون المحافظ عن حاجة الولايات المتحدة للوصول إلى نخب البلاد العربية وجماهيرها، وقال إنه «تحدث إلى برنارد لويس فى هذا الموضوع تحديدا»، ذاكرا انعدام الحرية فى المجتمعات العربية، الأمر الذى يؤدى إلى التمثيل الخاطئ للولايات المتحدة فى الشارع العربي. ثم أضاف تشينى «إنه بليغ مقنع فى هذا الشأن. وأنا أوافقه. أعتقد أن مشاكلنا الكبرى فى الماضى كانت تتمثل فى غياب التدفق الصريح الصادق للمعلومات على شعوب هذا الجزء من العالم»؛ وقال بتوافق مع لويس «علينا الاستمرار فى تنفيذ هذا بعدوانية شديدة. نحن بحاجة إلى حملة معلومات عامة نشطة تبرر ما نفعله، وتوضح أهدافنا وغاياتنا وأغراضنا هناك». ولهذا الهدف، عمل لويس كمحكٍ واضح موثوق بالنسبة لتشينى الذى كان يشارك لويس الرأى حول الحاجة لتحرير العرب من حكامهم الطغاة، ومن جهلهم، ووافقه أيضا جمهور «الخبراء» الذين كانوا حاضرين، والذين تمت استشارتهم فيما بعد حول سياسة الشرق الأوسط.

فى نفس الوقت الذى كان فيه عجمى ولويس يتسلمان جوائز الدولة، كان ديك تشيني، نائب الرئيس، يستشهد بلويس أمام معهد واشنطون لسياسة الشرق الأدني، وهو مركز أبحاث موالٍ لإسرائيل كان يتمتع بقدر كبير من النفوذ على إدارة كلينتون. حذّر تشينى ذلك الجمهور، المكون فى غالبيته من الديموقراطيين، من أن عليهم التعلم من أخطاء الماضي. وهنا، وفرت شخصية لويس ومشورته منبرا يتوحد حوله مسئولون من أمثال دنيس روس، وديك تشينى ويلتقون. ذكّر تشينى الجمهور بأحد مزاعم لويس الشهيرة فى التسعينيات حيث كان قد صرح بأن الولايات المتحدة كانت تدفع ثمن أحد إخفاقاتها فى الماضي، وهو إخفاق عزاه لويس إلى نقطة ضعف مأساوى فى السياسة الأمريكية – أى موقفها الذى يبدو متساهلا تجاه الشرق الأوسط. رأى لويس أن سياسات الولايات المتحدة الخيرة فى الشرق الأوسط أثناء الحرب الباردة

قد فهمها المتطرفون العرب والأنظمة العربية المارقة على أنها نقاط ضعف! أقنع ضبط النفس الذى مارسته الولايات المتحدة فى الماضى إزاء الإرهابيين هؤلاء المتطرفين بأنها متساهلة متراخية، بالتقابل مع السوفييت وحلفائهم فى المنطقة الذين حفزت وحشيتهم مشاعر الاحترام. كان الدرس واضحا على الرغم من عدم التصريح به: لا يفهم العرب سوى لغة القوة.

خطاب مفتوح للرئيس كلينتون:

فى عام ١٩٩٨، تمت دعوة لويس للمشاركة فى «لجنة السلام والأمن فى الشرق الأوسط». كانت اللجنة من بنات أفكار «مركز الدراسات الأمنية» برئاسة فرانك جافنى ولم تكن فلسفة هذا المركز المعلنة «السلام من خلال القوة» مجرد شعار للقوة العسكرية بل عقيدة مفادها وجوب الحفاظ على قوة أمريكا القومية واستخدامها كما يجب، وذلك لأن لها دوراً كوكبياً فريدا فى الحفاظ على السلام والاستقرار فى جميع الأنحاء». وكعضو فى هذه اللجنة وقّع لويس على التماس يدعو الرئيس كلينتون للإطاحة بصدام حسين. كان من بين الأسماء الموقعة على الالتماس وفقا لترتيب توقيعاتهم، دونالد رمسفلد، پول وولفويتز، دوجلاس فيث، وريتشارد آلان الذى أصبح مستشار الأمن القومي، وزلماى خليلزاد الذى أصبح سفيرا، ومايكل لدين من الأمريكان إنتربرايز إنستيتيوت، ومارتن بريتز رئيس تحرير دورية نيوريپابليك، وروبرت پاستور مساعد الرئيس كارتر الخاص، وماكس سينجر من مشروع القرن الأمريكى الجديد ومعه دايفيد ويرمسر الذى كان آنذاك زميلاً بالأمريكان إنتربرايز إنستيتيوت.

نقد الالتماس سياسة الاحتواء التى اتبعها كلينتون (وكان قد أطلقها چورچ بوش الأب)، ودعا الموقعون إلى العسكرة الفاعلة للسياسة الخارجية بالشرق الأوسط قائلين: «إن ما نحتاجه الآن هو استراتيجية سياسية وعسكرية شاملة للإطاحة بصدام ونظامه». تأتى الوثيقة بمخطط شديد التحديد لإثارة القلقلة السياسية بالعراق- وهو مخطط اتبعه بحذافيره فيما بعد چورچ بوش الابن. ينص الخطاب على أن الخطوة

المبدئية ينبغى أن تكون «الاعتراف بحكومة مؤقتة فى العراق.. تؤسسها قيادات مجلس العراق الوطنى INC». وفى واقع الأمر فقد كانت السى آى إيه هى التى أنشأت ذلك المجلس حيث كان جورج بوش الأب، وبعد غزو الولايات المتحدة الأول لمنطقة الخليج، قد كلّف السى آى إيه بمسئولية إنشاء جبهة معارضة تتبنى الإطاحة بصدام. وبدورها، قامت السى آى إيه بالتعاقد مع رندون جروب، وهى وكالة علاقات عامة مشبوهة للاستشارات الاستراتيجية، لإنشاء حكومة ظل عراقية فى المنفي. لم يكن المجلس يشكل معارضة مستقلة بقدر ما كان هيكلا تنظيمياً استخدمته السى آى إيه فى الحرب الدعائية ضد صدام حسين. نسقت رندون جروب أنشطته، والمناسبات التى كان يقيمها، وعضويته وبياناته بواسطة فرانسيس بروك مستشارها فى الشرق الأوسط، والذى عمل مستشار «علاقات عامة» للجلبى وكان يرافقه دائما. ودُشِن ذلك المجلس بالتنسيق مع حملة دعائية جماهيرية تم شنها من خلال منافذ إعلامية ومواقع علاقات عامة عديدة بمصادقة من وزارة الدفاع والسى آى إيه، وتضمنت هذه الحملة إنشاء قناة «الحرة» التليفزيونية والإذاعية العراقية الفضائية.

وفى هذا الصدد، تم استخدام الالتماس الذى وقعه لويس وأصدقاؤه من الأمريكان إنتربرايز إنستيتيوت بالترادف مع البرنامج الدعائى للسى آى إيه. كان الالتماس صريحا بشأن الخطوط التى تلى ذلك. بعد الاعتراف بالمجلس الوطنى العراقي، لابد للإدارة الأمريكية أن «تعمل على توسيع مساحة المناطق المحررة من العراق من خلال مساعدة حملة الحكومة المؤقتة الهجومية ضد نظام صدام حسين لوجستياً وبوسائل أخري». تضمن هذا الدعم «شن غارات جوية منهجية ضد دعائم سلطة صدام – وحدات الحرس الجمهورى التى تسانده والبنية الأساسية العسكرية التى تبقى عليه». وفى النهاية، نص الالتماس على أنه ينبغى «على الولايات المتحدة موضعة تجهيزات قوات أرضية فى المنطقة بحيث تكون لدينا القدرة، وكملجأ أخر، على مساعدة القوى المعادية لصدام فى شمال العراق وجنوبه، وحمايتها».

يوضح هذا المخطط كيف وفر الأكاديميون من أمثال لويس مظهرا من المصداقية

لمجموعة الصقور القتاليين الذين كانوا ينادون بإعادة ترتيب الشرق الأوسط منذ تسعينيات القرن الماضي. ثم بدأ موقعو الالتماس ومهندسوه فى تنظيم أنفسهم فى «شلة» أيديولوجية عملت فيما بعد أساسا لإدارة بوش الابن. أتاحت التسعينيات الفرصة لهؤلاء العملاء السياسيين، ومقاتلى الحرب الباردة السابقين، والصهاينة المتعصبين، وصقور الحزبين، والصحفيين المُؤدلجين والأكاديميين المارقين، أتاحت لهم تشكيل سياسة خارجية أمريكية تقوم على أساس هيمنة الولايات المتحدة المطلقة. نجم عن الالتماس الموجه للرئيس كلينتون إصدار مشروع قانون «تحرير العراق» عام ١٩٩٨ الذى ينص صراحة على التزام الولايات المتحدة بتقديم المعونة العسكرية واللوجستية والإنسانية من أجل «الإطاحة بنظام صدام حسين عن السلطة فى العراق وإحلال حكومة ديموقراطية محله». ثم وقع الرئيس كلينتون على مشروع القانون ليصبح قانونا نافذ المفعول. الأهم من ذلك، فقد أُدمِج فى الالتماس موقف أيديولوجى تم الدفع به إلى مركز السياسة الخارجية للولايات المتحدة. مثّل هذا تنسيقا ناجحا بين شبكة من العلاقات من مراكز الأبحاث والوسائط الإعلامية والقوى السياسية والتى كان لها أن تؤكد على ضرورة اتباع سياسة «الصدمة والترويع» الموجهة ضد العالم العربى مع صعود بوش.

لابد من الاعتراف بالروابط المباشرة بين كل هؤلاء وبين لويس بصفته المنشئ الأصلى لهيئة الخبراء تلك. يمكن أن يُعزى صعود البروفسور إلى مركز الصدارة فى التيار السائد إلى حقيقة ترسّخ موقعه فى شبكة المحافظين الجدد والموالين للصهاينة من المحركين والمخططين بأكثر حتى من زكريا وعجمي. كان الارتياب الخبيث فى المسلمين والعرب مبدأ أيديولوجياً مركزياً فى شبكة المحافظين الجدد فى التسعينيات وفى إدارة بوش. وفّر لويس رواية أيديولوجية أكاديمية تبدو مثالية ومؤسسة على الوقائع فى آن تمكّن المحافظين الجدد والصهاينة الأمريكيين من تعليق بغضهم وكراهيتهم عليها.

شبكة حروب بوش:

فى ١٩ سبتمبر ٢٠٠١، عقد دونالد رمسفلد، وبول وولفويتز، وريتشارد بيرل الاجتماع الأول من بضعة اجتماعات «عصف بالمخ» دينامية وفاعلة تبحث كيفية الرد على أحداث ٩/١١. بنهاية الاجتماع الأول كان الرد على ٩/١١ قد تقرر من قِبل هذه المجموعة وثيقة الترابط من مؤدلجى المحافظين الجدد: لابد من شن «حربٍ على الإرهاب»، وستكون عادلة بقدر ما هى واسعة المدى وطويلة الأمد. ستكون أيضا متعددة الشعاب تبدأ فى أفغانستان، وتقوم بتغيير النظام عسكرياً فى العراق، وتعيد هندسة القوانين المدنية والجنائية فى الداخل الأمريكى من أجل القضاء على الإرهاب الإسلامي. كان الاجتماع استمرارا لجلسات سرية تآمرية مماثلة عقدتها تلك المجموعة من المنظرين منذ سقوط بوش الأب. كُتِب الكثير والكثير عن هذه المجموعة وعن كيفية حدوث انقلاب قادة الفلاكنة أثناء سنوات بوش. وفيما أن الفلاكنة كانوا يعتمدون بانتظام على اجتذاب شخصيات من وزارة الدفاع والإعلام، والأكاديميا، ومراكز الأبحاث، وهيئات صناعة السياسة، إلا أنهم كانوا «شلة» هدفها استمالة الرئيس، وتشكيل شرق أوسط جديد وسياسات داخلية جديدة، وكانت فى نفس الوقت، تعمل بوضوح وصراحة على استبعاد مسئولى وزارة الخارجية.

وعلى حين استبعد كولن باول، وزير الخارجية، من هذا الاجتماع، ذكرت بعض التقارير أن زكريا ولويس وفؤاد عجمى لم يستبعدوا، بل إن لويس، فى واقع الأمر، لعب دورا مركزيا فى الاجتماع الذى تحدى فيه رمسفلد المستشارين والمسئولين الذين ملئوا الغرفة لاستباق الأساليب التى بها سيحتج المجتمع الدولى والمشهد السياسى الداخلى على غزو العراق. كان على الحضور تدَبّر أساليبَ لاستباق المقاومة الداخلية والدولية لسياسات البيت الأبيض وحرفِها عن مسارها. تجزم بعض التقارير بأن لويس كان هو قائد هذا الاجتماع فى معية صديقه الحميم أحمد الجلبى العميل العراقى الطموح.

كان الجلبى مصرفيا سابقاً وأستاذا للرياضيات، أدين فى إحدى وثلاثين جريمة

اختلاس وسرقة وتزوير فى الأردن. بدأ ارتباط الجلبى بلويس فى ذات الوقت الذى كانت السى آى إيه قد قامت بتشكيل المجلس الوطنى العراقي. كان الجلبى اختيار بيرل وولفويتز لـ «القائد المستقبلي» فى العراق، وذلك منذ أن قدم لهما مرشدهما اليمينى سيء السمعة ألبرت وهلستتر ذلك العراقى الأليف المدلل. قام وهلستتر أيضا بتقديم الجلبى للويس الذى غدا أعلى دعاته مكانة ورفعة. يقول ريتشارد بوليت الأكاديمى المرموق إنه كان ينتظر أن يصبح الجلبى أتاتورك العراق. إلا أنه فى واقع الأمر فقد كان دجّالا، وعميلا لدى حكومة الولايات المتحدة وانتهازيا يعمل لمصلحته الخاصة وقام بالتسلل إلى داخل الدوائر المحافظة فى أعقاب «عاصفة الصحراء» من خلال تيسير إقامة العلاقات بين المجموعات الكردية والبنتاجون. كان المجلس الوطنى العراقى هو المجموعة «المعارضة» التى دفعت بها حكومة الولايات المتحدة وصنعتها.

وعلى الرغم من تخلى إدارة بوش عن الجلبي، إلا أن لويس ظل حليفه ونصيره. وفى واقع الأمر، استمر البرفسور المتقاعد يدعو لـ «الحكم الذاتي» فى العراق أثناء سنوات بوش كرد على حالة الفوضى التى أتى بها الغزو. بيد أن لويس كان يعني، بوضوح، حكماً ذاتياً يقوده الجلبى الذى قال إن بإمكانه أن يقود العراق بحرص نحو الديموقراطية لكن ليس «قبل الأوان». ليس من قبيل المفارقة أن الكثيرين على الجانبين النقيضين، بمن فيهم هيلارى كلينتون، وزيرة الخارجية الحالية، صادقوا على دعوة لويس لإقامة «حكم ذاتي» بالعراق، وأن السناتور ليبرمان، والسناتور بوب كرِى دعما إصدار قانون يؤيد المجلس الوطنى العراقي.

بعد يوم واحد من الاجتماع سيئ السمعة الذى عقده وولفويتز بالبيت الأبيض، تم نشر خطاب إلى «الرئيس» فى صحيفة النيويورك تايمز يدعو إلى استهداف حزب الله بصفته منظمة إرهابية خبيثة، وممارسة الضغوط على السلطة الفلسطينية لوقف الهجمات على إسرائيل، ويضغط من أجل «إزاحة صدام حسين عن السلطة» حتى بالرغم من عدم وجود صلة بينه وبين هجمات ١١ سبتمبر. وعلى الرغم من دورهما المركزى فى النقاشات إلا أن الجلبى ولويس لم يوقعا على الخطاب. الأحرى

أن الخطاب نُشر برعاية مركز الأبحاث اليميني «مشروع القرن الأمريكي الجديد». تضمنت التوقيعات على الخطاب أسماء ستتكرر كثيرا في هذا الكتاب: ريتشارد بيرل، چين كيركپاتريك، فرانك جافني، رويل مارك جرنشن، ويليام بنت، جفري بل، فرانسيس فوكوياما، نورمان بودهورتز، وتشارلس كراوثامر. وعلى الرغم من التيار التحتي القوي داخل مجلس وزراء بوش الداعي إلى الإطاحة بصدام حسين وتنصيب الجلبي حاكما «ديموقراطيا» إلا أن الرئيس رفض مقترحات الخطاب حيث إنه لم يكن ثمة قرائن قوية على وجود علاقة بين صدام حسين والإرهاب الدولي – أو على إمكانية وجودها.

عمل فشل الثلاثة، ولويس وزكريا وعجمي والجلبي في إقناع البيت الأبيض بشن حرب على العراق على بدء سلسلة من الأحداث أكثر شهرة انتشرت بسهولة وسط جو الذعر والإسلاموفوبيا في أعقاب ٩/١١. كان رفض الرئيس بوش لخيار الحرب على العراق وتفضيله شن الحرب على أفغانستان حافزا لوولفويتز كي يسعى لفبركة قرائن على امتلاك العراق لأسلحة الدمار الشامل ووجود علاقة بين صدام حسين والقاعدة. وفي واقع الأمر، فلم يعدل الثلاثة ولويس وزكريا عن مسعاهم للإطاحة بصدام، وتنصيب عميل تابع مرن يحابي المصالح الأمريكية ويطبع العلاقات مع تل أبيب. كان هذا المسعى قد ظل نشطا قائما منذ انتهاء عملية عاصفة الصحراء. ظل لويس يتبع لقاءاته مع الثلاثة بنشر مقالات رأي متتابعة في الصحف الأكثر انتشارا وبخاصة في دورية وول ستريت. لم تكن تعليقاته مجرد تهليل يؤيد توجهات بوش العسكرية في الداخل وفي الشرق الأوسط، بل كانت ضرورة أيديولوجية. فإلى جانب بثه الحجج المشبعة بالإسلاموفوبيا التي يستند إليها في نقاشاته من أجل تبرير السياسة الخارجية أكاديمياً، فقد كان المقصد من تعليقات لويس بث الذعر بين الجمهور الأمريكي بصفته أكاديمياً ذا مكانة راسخة في مجال دراسات العالم الإسلامي، وأستاذا بجامعة برينستون، حيث مضى يحذر الأمريكيين من المغبات المحتملة إذا فقدت الولايات المتحدة العزم على مواصلة ما لابد وأن تُصبح حربا كوكبية طويلة على

الإرهاب، حربا كوكبية من أجل بقاء «أسلوب حياتنا». وبالمثل، كان الهدف من مقالات لويس تركيز بؤرة الانتباه على العالم العربي، وممارسة الضغوط على الفلسطينيين، وأهم من هذا كله إبقاء أنظار الأمريكيين مركزة على رعاية صدام حسين لـ«الإرهاب» ضد إسرائيل وعلى التهديد الذى يمثله على الأمن الإقليمى (النفطي).

فؤاد عجمي: عربى أبيض بالبيت الأبيض:

على الرغم من فشل اجتماع ١٩ سبتمبر، ثابر وولفويتز وشركاه فى جهودهم لتحقيق رغبتهم التى تمنونها منذ وقت ليس بالقصير لتغيير النظام بالعراق. وفيما عملت وزارة الخارجية وعلى رأسها كولن باول على تعويق أحابيل المحافظين الجدد من أجل اجتياح العراق، مضت شلة رمسفلد / بيرل/ وولفويتز فى عقد اجتماعاتها السرية (التى أقصيت عنها وزارة الخارجية). أخذوا يصدرون أوراقا بحثية سياسية ومبادرات أساسها الخوف من وجود عراق قوي، وحركة مقاومة فلسطينية فتية، وحزب الله مهيب الجانب، ومنظمة القاعدة الفيروسية. استمرت تلك الاجتماعات فى استغلال شبكة الأصدقاء المألوفة فى عالم الإعلام والأكاديميا، والحكومة وصناعة السياسات.

فى نوفمبر ٢٠٠١، تآمر وولفويتز، وكريستوفر دِموث، رئيس الأمريكان إنتربرايز إنستيتيوت للعمل على تشكيل شبكة لاعبين عابرة لمختلف المجالات والقطاعات لتجميع بورتفوليو عن الحرب على العراق. يبين بوب وودوارد أن وولفويتز عقد اجتماعا للمجموعة بحضور دِموث وزكريا ولويس وعجمي. صدر عن الاجتماع بيان سرى مهم نال رضا نائب الرئيس، ومستشار الأمن القومى كوندليزا رايس التى رأت أن رسالته تنقل الطبيعة الشريرة للشرق الأوسط بشكل «مقنع جدا جدا». يخبرنا وودوارد أيضا أن الأمريكان إنتربرايز إنستيتيوت ومدرسة [كلية] چونز هوبكينز للدراسات الدولية المتقدمة (SAIS) يقعان على مسافة قريبة من بعضهما وكانا «منبرا لكثير من التلقيح التهجيني.. وأن الأمريكان إنتربرايز إنستيتيوت كان الملتقى الفكرى ومأوى المتقاعدين من محافظى واشنطون»: كان دموث صديقا قديما لوولفويتز منذ أن كان هذا الأخير عميد SAIS بچونز هوبكينز.

ليس من قبيل الصدف أن نجد فؤاد عجمى أحد ملامح SAIS الدائمة وأرزقيا قديما فى الدوائر السياسية. وفيما أننا لن نقوم بتفحص أعماله فى هذا الكتاب، إلا أن أهميته ترجع إلى كونه مخبرا محليا [من الشرق الأوسط] وأكاديميا خبيثا مارقا منذ زمن طويل. وفى واقع الأمر، فقد جذب عجمى الانتباه على المستوى القومى كمعلق بتليفزيون CBS مع دان راذر أثناء حرب العراق الأولي، حيث أيد بصراحة ذلك الغزو، بل وشجع بوش الأب على المضى فى الحرب حتى يصل إلى بغداد و«ينهى المهمة». فى عام ٢٠٠٧، أسس مع لويس «جمعية دراسات الشرق الأوسط وإفريقيا «ASMEA والتى قُصد بها تجنّب جمعية دراسات الشرق الأوسط MESA الأكاديمية المهنية ذات المكانة الرفيعة. وفى واقع الأمر، لم يتمتع عجمى أو لويس بالمصداقية أو المؤهلات التى تتطلبها MESA وذلك لضعف خلفيتهما الأكاديمية فى هذا المجال علاوة على أنشطتهما السياسية من أجل إسرائيل وعسكرة الولايات المتحدة وأيضا مواقفهما العنصرية التى لا تتزعزع ضد العرب والإيرانيين والأرمن.

وبالتقابل مع MESA، فإن مهمة ASMEA كانت «تنشئة جيل جديد من الباحثين والأكاديميين» والمتعاطفين مع إسرائيل ومع سياسة الولايات المتحدة الخارجية. ومنذ نشأتها، لم تتعد كثيرا كونها هيكلا خارجيا يؤوى الأكاديميين اليمينيين، والمتطرفين الموالين لإسرائيل. يضم مجلسها الأكاديمى جورج شولتز وزير الخارجية الأسبق ورئيس شركة بكتل سابقا، وكنت ستاين المدافع عن إسرائيل والذى استقال من منصبه كرئيس لمركز كارتر حينما اتهم الرئيس الأسبق الدولة الصهيونية بممارسة التفرقة العنصرية. كما أن عجمى «صديق حميم» لوولفويتز ويقال إنه كان «مستشارا» لكونداليزا رايس.

وعلى الرغم من أن أعماله لا تحوز الاحترام فى الأوساط الأكاديمية المتخصصة فى الشرق الأوسط، فقد ضمن له موقعه فى SAIS مكانة جيدة فى أوساط صناع السياسات، ومقعدا فى مجلس مستشارى دورية فورين أفيرز، وهيئة تحرير ميدل إيست كوارترلى وهى دورية يصدرها مركز الأبحاث البارز الموالى لإسرائيل «ذا

ميدل إيست فورام». كثيرا ما كان ديك تشيني وكونداليزا رايس يذكران اسم فؤاد عجمي، بأسلوب مقصود يوحي بالعفوية، بصفته مرجعية في الشرق الأوسط، وكإحالة أكاديمية من أجل إضفاء المصداقية على سياسات بوش الفاشلة. بل إن تشيني في أحد خطبه أحال الجمهور إلى آراء عجمي من أجل تبرير الاجتياح الوشيك للعراق، الأمر الذي أحدث فضيحة مدوية شائنة.

وفي سنوات زواء إدارة بوش، كان اسم عجمي يُسمَع كثيرا في إجابات مسئولي البيت الأبيض حينما كانوا يُسألون عن التقدم الذي يحرزه الأمريكيون في العراق وإمكانية مواجهة إيران. مثلا، صرح توني سنو، المتحدث الأسبق باسم البيت الأبيض قائلا «كان معنا الجنرال المتقاعد وين داونينج، والجنرال المتقاعد باري مكفري، ومايكل ڤيكرز، وأمير طاهري وفؤاد عجمي، ورعد القادري» في الاجتماع حول العراق وإيران. وحقا، فليس من النادر عقد مثل تلك الاجتماعات بين البيت الأبيض، ومسئولي البنتاجون رفيعي المستوى وشلتهم. منذ عقود، اعتادت وزارتا الدفاع والخارجية دعوة المتخصصين في مختلف المجالات من جميع التوجهات السياسية لطرح تحليلاتهم عن مناطق معينة، وللسياسات والأحداث. بيد أن إدارة بوش أنهت عصر المتخصصين في دراسات العالم العربي، أو «المستعربين» وهو مصطلح كان محل قدح من قبل كثير في الإدارة ومن المحافظين الجدد والحركات الأمريكية الصهيونية. وبدلا من ذلك اعتمدت إدارة بوش على المسئولين الذين نسّقوا تسليح السي آي إيه للمجاهدين مثل ڤيكرز، و«المعلقين» المأجورين من أمثال طاهري أو الأكاديميين المارقين المزيفين من أمثال عجمي. وفي هذه المناسبة بالذات استند سنو إلى تفاؤل عجمي بشأن الغزو والاحتلال وأطرى عليه، ثم استشهد بزيارات البروفسور للعراق ولقاءاته بآية الله العظمى علي السيستاني كبرهان على أن الأوضاع على الأرض كانت آخذة في التحسن. ومن المفارقات الساخرة أن زيارة عجمي تزامنت مع تصاعد مُروِّع في أعمال العنف، ومع تحلل المجتمع السياسي والمدني على أرض الواقع في خريف ٢٠٠٦. تضمّن تدمير الحياة العراقية مقتل أكثر من ألف عراقي من المدنيين في شهر إبريل فقط من العام ذاك.

وفى العام الدموى ذاك، أصدر عجمى كتاباً يطرى فيه على سياسة الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط، مُركِّزا بخاصة على جهدها «النبيل» فى العراق. تزامنت دعايته الصحفية لهذا الكتاب الذى كان عنوانه «هدية الأجنبي» مع تراجع لولبى فى الدعم الشعبى للحرب وما تلى ذلك من تخطيط لـ «الاجتياح» وتنفيذ له. وبما أن عجمى كان على أرض الواقع عميلا حكوميا أثناء سنوات بوش، يمكن للمرء بسهولة فهم السبب الذى من أجله يشير ديك تشينى إلى عجمى بصفته «صديقه الصدوق». وفى الواقع فقد كان صديقا صدوقا لسياسات تشينى طوال سنوات تلك الإدارة. وفى العام التالي، وبعد نشر تقرير بترويس، استشهد تشينى بزيارة أخرى قام بها عجمى للعراق للتحدث مع شيوخ العشائر، والشخصيات الدينية والسياسية، حيث أبلغ جمهوره أن بروفسوره الأليف المفضل قد أكد له أنه على الرغم من أن «جميع أنواع الضراوة والعنف لم تخمد بعد.. فقد بدأ قدْر من النظام يثبت على الأرض» فى العراق.

وبالتقابل مع زكريا البرجماتي، ظل عجمى مخلصا لرعاته من المحافظين الجدد طوال السنوات الأكثر قتامة لإدارة بوش. وفى مواجهة الإخفاقات المتتالية، كان يصر على تذكير الجمهور الأمريكى بأن الشرق الأوسط «بيئة خطيرة»، أجنبية، لا يجوز الثقة به بل يجب التعاطى معه بقبضة حديدية. دعا إلى استخدام «القوة الصلبة» فى الشرق الأوسط، وظل مروّجا مخلصا لـ «أجندة الحرية» الكارثية التى ابتدعها بوش. ولذلك، فبمجرد أن أقسم باراك أوباما قسم الرئاسة، مضى عجمى يعلن صاخباً معارضته، بصفته ممثلا للنظام القديم، لسياسة «اليد الممدودة» تجاه العالم الإسلامى التى نادى بها أوباما وذهب إلى أن ذلك الموقف المتساهل يعتبر «تدليلا» للطغاة و«طمأنة للمستبدين» واتهم الرئيس الجديد بأنه فشل فى استغلال اللحظة، والاعتراف «بأثر سلفه الثورى على بلاد المسلمين» ناهيك عن الاستفادة منه. فى كتاباته الأخيرة يدعو عجمى أوباما إلى الاعتراف «بالطبيعة المغايرة للبلاد الأجنبية» وإلى استخدام القوة والقمع لدى الحاجة، وعدم تكرار سياسات الاسترضاء التى اتبعها كارتر.

علاقة عجمى الحميمة بمسئولى البيت الأبيض فى عهد بوش لم يكن يفوقها سوى علاقة معبوده برنارد لويس بهم. وفى واقع الأمر، فإن چون ميرشيمر وستيفن وولت يقرنان اسميهما حينما يذكران أنه يقال إن برنارد لويس من برنيستون وفؤاد عجمى من جونز هوپكينز كان لهما دور مهم فى إقناع تشينى بأن الحرب هى الخيار الأفضل».. يشكل الاثنان ثنائياً يكمل أحدهما الآخر، ودائما ما يحضران معا نفس المناسبات والاحتفالات الحكومية. أسهما معا فى نفس ورش العمل التى شكلها أعضاء الشبكة الذين جاء ذكرهم فى هذا الفصل، كما مُنحا الجوائز من نفس الهيئات الإمبريالية. وفى واقع الأمر، فقد اعترف البيت الأبيض فى عهد بوش بخدماتهما للنظام فى مناسبات عديدة. وفى إحدى تلك المناسبات كانا بين سبعة أساتذة جامعيين تمت دعوتهما لحضور عشاء مع الرئيس بوش احتفالا بمرور ٤٠ عاما على إقامة «الوقف القومى للفنون» و«الوقف القومى للعلوم الإنسانية». وحضره ١٢٠ مدعوا. وعلى الرغم من أن تخصص عجمى [العلوم السياسية] ينضوى ضمن مباحث للعلوم الاجتماعية إلا أنه مُنِح هو ولويس «ميدالية الإنسانيات القومية» بعد ذلك بعام، وتلقى معهما هذه الجائزة عن العام ذاك هووڤر إنستيتيوت سيئ السمعة – على الرغم من أنه ليس معهدا للإنسانيات أو الدراسات المأنسنة– وكذلك مارى لِفكوويتز أستاذة الكلاسيكيات ذات التوجهات اليمينية. وفى واقع الأمر، تكشف قائمة من منحوا الميداليات فى العام ذاك أن تلك الجائزة كانت مكافأة مُسيّسة لا اعترافا محترما بالإنجاز الأكاديمى فى مجال الإنسانيات.

الخلاصة:

ليس توجيه الاتهامات والإهانات والمواقف المتعالية بالنسبة للعالم الإسلامى بالأمور المستحدثة. تم دعم الاستعمار وعصر التوسعات بواسطة كتابات شكلت مجلدات ضخمة ضمت أعمالاً تميز وتعرّف وتقيس وتزن وتستهزئ بالشعوب، شعوب البلاد المستعمرة وأراضيهم. تم توظيف دراسات الشرق، والاستشراق من أجل تشكيل خطابات، وجمع معلومات عن شعوب الجنوب الكوكبي، واستخدامها فى

تبرير الحكم الاستعماري. بيد أنه، وكما أوضح لنا إدوارد سعيد، فإن الاستشراق ليس مبحثا جامدا لا يتغير. تنامت المعرفة الاستشراقية وتغيرت النماذج المعيارية كي تستوعب الحقائق الكوكبية الجديدة، وبخاصة صعود الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي قوتين عظميين. من المفارقات أنه بمجرد أن بدأ الاستشراق كمبحث يفقد وضعه وتوجهه بسبب كتابات إدوارد سعيد الرائدة حتى ظهرت سلالة استشراق جديدة بدت وأنها قامت على أنقاض النماذج المعيارية القديمة التي كان قد تم تفكيكها.

في أعقاب عاصفة الصحراء (أو حرب العراق الأولي) ظهرت الإسلاموفوبيا كمزيج من تحليلات الاستشراق الأكثر عنصرية واختزالا. وفيما أوجد الاستشراق متناً من المعرفة الضرورية لخلق مجال للدراسة يتبعه خلق موضوع للهيمنة، انبثقت الإسلاموفوبيا في البداية عن مراكز الأبحاث ومُعلقي دوائر واشنطون المغلقة. ليست الإسلاموفوبيا مبحثا مثل الاستشراق، ولا تتطلب تعليماً أو تدريبا في مجال اللغات، وفقه اللغة، وتحليل النصوص والتاريخ والأنثروبولوجيا بل هي تشكيل أيديولوجي ينتقل من مراكز الأبحاث إلى جماعات الضغط ومجموعات الفعل السياسي، وفي نهاية المطاف إلى جميع فروع الحكومة الفدرالية، وحكومات الولايات، والحكومات المحلية من أجل العزل المباشر لمسلمي الولايات المتحدة ومسلمي العالم واستهدافهم وشيطنتهم. وبتواطؤ مع الإعلام الجماهيري، وجماعات المصالح، والمعلقين، والمتحدثين والمرشدين المعلمين، ومركز الأبحاث، يتم تحويل التعليقات الأيديولوجية التوجيهية إلى «تحليلات» وصفية مقبولة بعامة لحقائق ثقافة العرب والمسلمين ومجتمعاتهم ودينهم.

في ظل الرؤساء كلينتون وبوش وأوباما، واكب تفشي نماذج الإسلاموفوبيا مستوى جديداً من السياسة الخارجية الأمريكية العدوانية – بل وديبلوماسية المدافع – في العالم العربي. أما في الداخل الأمريكي، فقد وُظّفت الإسلاموفوبيا كتبرير أيديولوجي لحرمان عشرات الآلاف من الحريات المدنية، وتكوين ملفات عنهم والاحتجاز غير القانوني لعشرات الآلاف من المقيمين الشرعيين، والتغاضي عن اختطاف المشتبه

فيهم وتعذيبهم، وتشريع التجسس على المواطنين الأمريكيين ومراقبتهم والإيقاع بهم؛ وحدوث سابقة لاغتيال مواطنين أمريكيين. أصبحت الإسلاموفوبيا مبررا ثقافيا مقبولا لإرهاب المفكرين والباحثين والطلبة الناشطين والإخماد الاستباقي للمعارضة السياسية بالولايات المتحدة. ورغم نهج القفاز المخملي الذي يتبعه أوباما تجاه العالم الإسلامي، إلا أن اتحاد الحريات المدنية الأمريكي ACLU أوضح استمرار سياسات إدارة بوش، ومدركاتها ونماذجها المعيارية بخصوص العالم الإسلامي في ظل الرئيس الحالي، بل أيضا إن إدارته اتخذت الخطوات لإضفاء الصبغة المؤسسية على انتهاكات الإدارة السابقة للحقوق المدنية. ولم يكن لهذا أن يحدث بدون انتشار نماذج الإسلاموفوبيا في أنحاء المجتمع المدني والمجال السياسي بالولايات المتحدة وتطبيعها.

وعلى حين أن الاتهامات التي توجّه للعالم العربي والتنميطات عن تخلفه شكلت الأساس التحتي لسياسة الولايات المتحدة الخارجية تجاهه منذ الحرب الأولى ضد البربر في شمال إفريقيا، فقد وسمت الإسلاموفوبيا العرب والمسلمين بالعداء العصابي المتطرف للسلوك الحديث المعياري. يذهب هذا الكتاب إلى أن مثل تلك المفاهيم ليست من قبيل الصدفة، أو نتيجة فهم مغلوط أو جهل، أو عزلة ثقافية أمريكية أو حتى توجه اجتماعي/ نفسي روتيني لإسقاط الصور السلبية على «آخر» غريب. لقد رأينا أن شبكة المنظرين الكبار للتبريرات القائمة على الإسلاموفوبيا ومهندسيها من أجل توسيع مدى الإمبراطورية الأمريكية تصل عميقا وتتخلل الإعلام وقاعات المجالس، والغرف السياسية التي ترسم سياسة الولايات المتحدة. من ثم، فإن الإسلاموفوبيا ليست تحيزا غريبا أو مسيحيا ذا صبغة عالمية يمتد في الماضي إلى البيزنطيين أو المحاربين الصليبيين. بل العكس هو الصحيح حيث إنها ظاهرة تم ترقيع أجزائها من خلال تنويعة من مجموعات المصالح، والتنظيمات، والمجموعات السياسية ثم تم التعبير عنها من خلال عدد وافر من المنظرين المرئيين يدعمهم جدار من ضجيج البيض الذي يصدر عن صغار المأجورين، والهواة، والمتحولين الذين اعتنقوا الإنجيلية والمدوّنين.

وُضعت «أجندة الحرية» فى التسعينيات بواسطة مزيج مُلفَّق من صقور الحرب الباردة، والصهاينة اليمينيين، وعتاة النيوليبراليين القتاليين. ومع صعود چورج دبليو. بوش إلى سدة الرئاسة، تمكن اللاعبون المفتاح الذين توحدوا حول مشروع القرن الأمريكى، والأمريكان إنتربرايز إنستيتيوت، وأيضا مجلس العلاقات الخارجية، تمكنوا من تطبيع مخططاتهم لتتوافق الهيمنة الاقتصادية الأمريكية على الشرق الأوسط مع التحكم الأمريكى السياسى فى المنطقة. وكما رأينا، تآمرت شبكة العلاقات المتداخلة بين المثقفين والإعلام وصناع السياسة وجماعات الضغط لتبرير غزو العراق كوسيلة لسحق «نظام مارق» وذلك من أجل تغلغل المصالح السياسية والاقتصادية للولايات المتحدة فى الواقع السياسى شرق الأوسطى بأعمق مما هى عليه.

تولى باراك أوباما الرئاسة فى وجود واقع كوكبى وإقليمى أوجده نظام بوش. لم ينجم واقع العداء بين الغرب والعالم الإسلامى عن قرون من الارتياب وفقدان الثقة، بل من نشر الإسلاموفوبيا وإضفاء الصبغة المؤسسية عليها كتبرير أيديولوجى لسياسات الولايات المتحدة. وعلى الرغم من أن شبكة أوباما الخاصة استبعدت الكثيرين من شلة بوش إلا أنها مازالت تشارك فى نفس سياسات سابقتها. وهكذا، فقد استمر أوباما، وكما سنرى، فى اتباع السياسات القائمة على الإسلاموفوبيا، وفى تشجيع الظاهرة من أجل تبرير السياسات الداخلية والخارجية، كثَّف بذلك مناخ الحصار الذى يشعر به المسلمون فى الولايات المتحدة.

يزعم هذا الكتاب أن الإسلاموفوبيا تشكيل أيديولوجى اختصت به «لحظة أحادية القطب». سنرى أن له تضمينات كثيرة، وتعديلات، وخطابات تحتية تسهل نسقاً من الأفعال والإجراءات الرسمية وغير الرسمية، المشروعة وغير المشروعة، ضد المسلمين داخل الولايات المتحدة وفى أنحاء الكوكب. وعلى الرغم من مدارسها وأطيافها المختلفة، فإنها مدعومة بالعنصرية وبالرغبة فى التحكم فى المعارضة والاختلاف فى الرأي، وإدارتهما. سيرسم هذا الكتاب خريطة لمنحنيات الاستطرادات «المنطقية» للإسلاموفوبيا، وتحولاتها، ليس فى سياق البحث الأكاديمي، بل لتوضيح تأثيراتها

الواقعية الملموسة جدا. سيبين الصلة بين أعمال الأكاديميين الخبثاء النفعيين والمنظرين والمرشدين والصحفيين الانتهازيين وبين سياسات حكومة الولايات المتحدة وإجراءاتها وأنشطة جماعات الفعل السياسي، ومراكز الأبحاث وجماعات الضغط. لا يجوز أن يُعزى صعود الإسلاموفوبيا فى عصر العولمة إلى استغلال إدارة بوش لتلك المشاعر الكامنة والجلية داخل الدوائر الإعلامية والسياسية شمال الأمريكية، فإن خوف أوباما الضارى المستتر من المسلمين يدل على وجود أسباب أخرى. لقد ظهرت الإسلاموفوبيا كأيديولوجيا مغايرة مهيمنة وسمت السياسة الخارجية الأمريكية منذ نهاية الحرب الباردة. لقد أوضح هذا الفصل كيف تكمن روابط كبار منظرى الإسلاموفوبيا فى الثقافة السياسية للولايات المتحدة وفى سماتها السطحية المرئية وكيف ساعدت هذه الشبكة بنجاح على ترسيخ معتقدات الإسلاموفوبيا كحقائق طبيعية متفق عليها يُستند إليها فى الأحاديث، وكأطر للنقاش حول الشرق الأوسط وضرورة هيمنة الولايات المتحدة عليه.

obeikandl.com